
أحمد عصام الدين
Telegram:@mbooks90
رواية

عصام الدين، أحمد
دوائر الساعي : رواية / أحمد عصام الدين
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2024.
152 صفحة، 20 سم.
ردمك : 978-977-820-232-8
ا- القصص العربية
ب- العنوان : 813
رقم الإيداع : 28273 / 2023
الطبعة الأولى : يناير 2024.



كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم- محافظة الجيزة.
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 01000405450 – 01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

دفتر الهلاوس

٥:١٩ صباحًا

رأيت نفسي وقد أصبحتُ عكازًا معلقًا فوق مسمار صدئ على حائطٍ له رائحة نفاذة وكأنه قد تمَّ طلاؤه للتو. من بعيد، رأيت طفلًا يتثاءب ويتمطّى فوق سرير صغير، قفز واقفًا، اشتعل شبشبًا ملونًا، أمسك دفترًا يبدو جديدًا ثم بدأ يسير تجاهي بخطواتٍ صغيرة. كلما كان يقترب مني خطوةً كان يزداد طولًا وحجمًا، صار عملاقًا، ثم بدأ يقصر، ينكمش، وعندما صارت تفصلني عنه خطوة واحدة كان قد تحوَّل لعجوزٍ منحني الظهر، وكان الدفتر الذي يقبض عليه بيدٍ تبرز عروقها قد بات مُمزق الجلد، أصفر الأوراق، والحائط الذي كنتُ أستند اليه كان قد امتلأ بشروخٍ مُتعددة الأحجام، براويز مخدوشة وباهتة، ورسومات بخطِّ طفلٍ صغير لم يحاول أحد أن يمحوها. مد العجوز يده المرتعشة والتقطني بصعوبة ثم استدار للخلف وبدأ يسير عائدًا لسريره، مُحتضنًا دفتره، مُتعكزًا عليّ.

سباق فوق رقعة شطرنج

كان شارع الساعي شاهدًا على سباق أغلقت من أجله الدكاكين، أبعد الباعة بضائعهم، مُنعت السيارات من المرور، واصطف الناس على جانبي الطريق والحماس يُضيء أعينهم، يُحرك أيديهم، ويجعل حناجرهم تُصدر أصواتًا اهتزت من ذبذباتها الأبنية المُتهالكة.

فوق الرصيف المزدحم رأى نوح أباه، يرتدي بذلةً سوداء لا تشوبها ذرة غبار، ويحمل بين يدَيه رقعة شطرنجٍ خالية من القطع. ابتسم أبوه باستهزاءٍ ثم أشار لنوحٍ فتوقف يلهث، يرتعش، ويبحث عن هواء يروي ظمأ صدرِه. اقترب منه أبوه ثم انحنى وهمس في أذنه:

- لا يوجد في الحياة سوى مقعدٍ واحد يجلس فوقه من يسبق منافسيه.

استيقظ نوح من حلمه المُتكرر على انعكاس صورته في المرآة المواجهة لسرير طفولته. كان مُلتحفًا بغطاءٍ خفيف يبرز منه رأس احتلّه الصلَع بلا مقاومة تُذكر. حرّر جسدَه من حضن السرير بأعجوبة ثم وقف نِصف عارٍ خلف باب الغرفة الموارب ليُراقب أفراد عائلته الجالسين في صالة البيت بكروشٍ لا تشبع، بقلوب لا تصفى، وبأفواهٍ لا تتوقف عن الثرثرة أبدًا.

غاص في قميص واسع يفتقر لملمس المكواة، وضع ملابسه وحاجاته في حقيبة سفر ضخمة ثم تركها في منتصف الغرفة بعدما وجدها أثقل من أن تحملها ذراعاه المُنهكتان. أخذ دفتره المُمتلئ بالهلاوس، قلمَه المعضوض الغطاء، والكاميرا التي رأت بعينيها سعادته تُزرع، تتفتح، ثم تذبُل، وتنكمش.

تسلّل على أطراف أصابعه لغرفة أمّه التي، بعدما أكل داء الصمت لسانها، انتقلت للسكن في الشُرفة بصحبة كاسيت فقد بابَه في حادثٍ أليم، علبة سجائر لا تفرَغ أبدًا، وصندوق مُمتلئ بالروايات ومُغطى بخيوط العناكب.

تركها غارقةً في سُحب دُخانها وقفز في حذاءٍ رياضي كان يرتديه في حلم السباق. عبر الصالة المُزدحمة، دون أن يلتفت للناس، خرج من الشقة ثم أغلق بابها

قبل أن يفتحه ابنه، كريم، ويقف فوق العتبة الرخامية ينظر لأبيه بعينين وزمهما البكاء. اقترب منه، وضع يدَه فوق رأسه، راح يُداعب شعرَه الناعم، بحث عن كلمات تُطمئنه وعندما لم يجد واحدةً؛ أشاح بوجهه، وانصرف مبتعدًا.

خرج نوح من البوابة التي غرست في الأرض بفعل الزمن، التفت لبورصة الساعي فوجدَها مزدحمةً بعشرات من الرجال الذين فرّقتهم الوظائف، الشهادات، المسؤوليات، الأعمار، الأحلام، الأوهام، وجمعتهم رُقَع الشطرنج فوق مُربعاتها السوداء والبيضاء.

وقف نوح أمام البوابة يتأمّل لافتة **(حلواني جميل)** التي لم يكن قد وُلد عندما كتبها جدُّه بخط يده ولكنه كان يتأمله كل يوم وهو يقف بجلبابه الفضفاض ليمسح اللافتة بمقشة طويلة اليد. عندما توقف جده عن تنظيف اللافتة طلّتها الأيام بطبقات الغبار، وغُلّفت القلوب بأغشية النسيان.

جلس نوح فوق كرسي مصنوع من خشب الخيزران، بهُت لونه، تقشَّر دهانه، تساقطت أخشابه قطعةً تلوَ الأخرى، واعتادت أقدامه آلام المسامير التي غُرست فيها لتقنعها بالعودة لمكانها. أخذ يُراقب – كعادته – بوابة محطة القطار التي تبدو كجُحر نمل يندفع منه الركاب بحقائب تحتضِن ماضيهم، ورءوس تحلم بما لم تحتضِنه حقائبهم.

قبل أعوام لم يعُد لحصرها داعٍ، وقف نوح على أطراف أصابعه لكي يتمكن من الوصول لحافة سور الشرفة كمراد أخيه الذي كان أكثر منه طولًا، ذكاءً، محبةً، ونجاحًا.

وصلت الكراسي الخيزران، القادمة لبورصة الساعي، محمولةً فوق عربة مُتهالكة يجرُّها حمار شِبه ميت. قبل أن يُفرغ العربجي حمولة العربة كان نوح ومراد أخيه يجلسان فوق كرسيين قد جفّت دهاناتهما للتو. شهد كرسي مراد بطولاته في الشطرنج واحتفاء الجيران بمهاراته، وسكب ظهر نوح جالونات من العرق فوق كرسيه وهو يُخفي حسرات الخسارة خلف أقنعة الابتسامات المزيفة.

- ممن خسرتَ اليوم يا نوح؟

يُلقي أبوه سؤاله فيضحك نوح ادعاءً ويبكي ظهرُه عرقًا. يقصُّون على الأب

تفاصيل المباريات التي خاضها ابنه مراد ببسالةٍ أمام عظماء المقهى. يحكي لهم عن السباقات التي ربحها بسهولة وكسر فيها أرقامًا قياسيةً قيل إنها لا تُكسَر. وتبكي أرداف نوح عرقًا حتى يبدو لمن يراه وكأنه قد تبوّل على نفسه.

كان الأب يقضي كل وقته في عيادته التي لم يفهم نوح حينئذ؛ لماذا يبدو المرضى الذين يدخلونها أصحّاء، لماذا يتلفّتون وراءهم قبل أن يعبُروا بابها، ولماذا يسخر منهم زوّار المقهى ويُلقبونهم بالمجانين؟!

اعتاد نوح أن يهرب من قِصَر يديه بالاختباء خلف جدران رأسه، في مخيلته حقّق كل نجاحٍ فشل في تحقيقه فوق أرض الواقع؛ ربح سباقات، حمل كئوسًا، قتل ملوك الشطرنج فأطاح برءوس، لَكَمَ المتنمّرين، ألجمَ الساخرين، وكان صوت نادر - صديقه - يُعيده لما كان دائمًا عليه؛ مسكين.

- استفق يا صاحبي وأحضر الكرة بسرعة، عندنا مباراة ساخنة مع فريق شارع السوق.

يُخرج نوح الكرة من غرفة الشيشة وقبل أن تتنفّس؛ تركل، تلكم، تدهس، وتثقب فتتوقّف المباراة حتى يذهب أحدهم لعم صالح العجلاتي لينفُخها، تستعيد الكرة قوامها، وتستعدّ للعلقة الجديدة.

كانت المباريات تُقام في الشارع المجاور لمحل جميل الحلواني، ونوح – رغم محدودية مهاراته – كانت تدبّ في جسده طاقة تجعله يركض، يقفز، يُسدد، يصدّ، ويرفع رأسه كل دقيقةٍ نحو شرفة ماريا فيبتسم، وتبتسم، ويمحو أبوه ابتساماته فور عودته للبيت مُلطخًا بالطين والعرق.

- ألم أقُل لك ألف مرة أن تتوقّف عن اللعب بهذه الكرة السخيفة؟

- ولكن ...

- عندما أتحدّث لا تقاطعني أبدًا، فاهم؟

يسكت نوح ويبدأ ظهره في التعرّق. يُشير له أبوه بسبّابته ثم يقول مشمئزًا:

- هل هذا منظر إنسان محترم؟ ما الفرق بينك وبين الزبّال؟

يرتشف من فنجان قهوته تاركًا نوح مُنكس الرأس. يقول جُملته التي يُكررها مع كل محاضرة يُلقيها:

- لكل إنسان دائرة يضع بداخلها ما يختاره من أشخاص، أشياء، وعادات. وما تحتويه دائرته يُحدد مصيره.

- ولكني لا أريد أن أجري أو أدخل سباقات. أنا أحب كرة القدم.

سكت أبوه ثوانيَ مرّت على نوح كالدهر.

- ولماذا تُخاطر بكسر ساقك أو يدك من أجل لعبةٍ تافهة لا جدوى من ممارستها؟... الجري رياضة مُفيدة جسديًا ونفسيًا... كما أن السباقات تُعلمك الإصرار والمُثابرة.

رشف آخر قطرة من فنجان القهوة ثم قال:

- الحياة سباق يا نوح، الفائز يحصد كل شيء، والخاسر لا يحصل إلّا على المواساة والشفقة. وكلاهما لا يرفع مكانًا ولا يربح جنيهًا.

أشار لزوجته التي كانت صامتةً وكأنها تُشاهد فيلمًا في التلفاز.

- حمّميه وأدخليه غرفة الصالون ساعة.

في وقتٍ كان معظم الآباء يُعاقبون أولادهم بالضرب أو بالتوبيخ، كان الدكتور مراد الشاعي يُعاقب أولاده بالنفي في غرفة الصالون لمدةٍ يُحددها بنفسه بناءً على حجم الجريمة المُرتكَبة، صيغة الاعتذار المُقدمة، وحالته المزاجية في لحظة إصدار الحكم. كانت زوجته تُشبه الجلاد الذي يُنفذ الأحكام بلا نقاش أو اعتراض، وكانت دائمًا ما تُخفف حدّة العقاب بأشكالٍ مختلفة من الحنان الأمومي كالطبطبة، تقبيل الرأس، أو تحضير الحلوى لكي يتناولها العائد من المنفى بعد انتهاء مدة العقوبة.

في محلّ جميل الحلواني، كان نوح جالسًا في مكانه المُعتاد، أسفل لوحة (هو عليّ هيّن) المُعلقة فوق الحائط. وقف الجد جميل يقطع صينية بسبوسة خرجت لتوّها من الفرن. صوت أسمهان كان ينبعث من راديو مُثبتٍ في مسمارٍ ضخم، والجد جميل يُدندن معها وهو يهزّ رأسه مُستمتعًا.

دخلت ماريا بفُستانها الأبيض، نظر الجد لنوحٍ وابتسم.

- ربع بسبوسة يا عم جميل.

- عيون عمْ جميل.

أخذ الجد يهزُّ سلك الكهرباء المتدلّي من الراديو حتى صمتت أسمهان.

- تعالَ يا نوح قطّع ربع بسبوسة للآنسة ماريا حتى أصلح الراديو.

انتفض نوح واقفًا، حمَل الجد الكرسي الخيزران، وضعه أسفل الراديو ثم قفز فوقه برشاقةٍ لا تتماشى مع التهابات مفاصله.

- ألم تأتِ أمُ كرم بائعة التوت اليوم؟

تكدّست الكلمات في حلق نوح حتى كاد يختنق. قال الجد جميل دون أن يلتفت:

- جاءت في الصباح ورحلت.

انطلق نوح كطفلٍ أدرك متأخرًا أنه يستطيع أن يتكلم:

- هناك شجرة توت في الشارع الخلفي، أستطيع أن أتسلّقها وأجلب لك بعضًا من التوت.

نظر الجد جميل بطرف عينيه متعجبًا، كان يعرف أن نوح لم يتسلّق شجرة من قبل، وأن شجرة التوت هذه محاطة بسور مرتفع يصعب اجتيازه. سكت الجد، ترك حفيدَه يخوض المغامرة، أدخل سلك الراديو في فيشته فعاد صوت أسمهان، وعاد الجد لدندنته.

ترك نوح ماريا تمشي أمامه حتى يتمكّن من إخفاء ظهره الغارق في العرق. كان يفكر في عُذر يختلِقه لكي يُبرر عجزه عن تسلُّق شجرة التوت. داعب الهواءُ شعر ماريا فلمست أطرافه خدّ نوح. نظرت له، وابتسمت. وكانت ابتسامتها كافيةً لكي يقفز فوق سورٍ يفوق طوله مرتين، ويتسلّق الشجرة غير مكترثٍ بجروح يديه، بآلام ظهره، وبقلبِه الذي كاد يُغادر صدره من شدة الخفقان.

زوّج الأستاذ بيومي أولاده ثم جاء للمدينة واشترى أرضًا أقام فوقها فيلًا من ثلاث طوابق. زرع حديقتها بورودٍ مختلفة الألوان تتوسّطها شجرة توت. اشترى الحاج عبد القادر الأرض المُجاورة لفيلّته، ولأنه كان يؤمن أن المال أهم من الجمال، شيّد عمارتين تضم كلٌ منهما اثنتي عشرة شقة. حاول الأستاذ بيومي أن يحمي حديقته من غزو أطفال الجيران فقام بتشييد سورٍ عالٍ تمكّن من إخفاء الورود عن الأيدي، وبرزت من ورائه شجرة التوت التي كان أطفال المدينة يقطعون شوارعَ وحواريَ من أجل مُغامرةٍ بطعم التوت. كان الأستاذ بيومي يصيح في وجوههم بصوته الغليظ فيتسلّقوا السور كقرودٍ مُدربة ثم يركضوا عائدين لشوارعهم وقطرات التوت تتساقط من قبضاتِ أيديهم المُنتفخة.

لم تكن سعادة صاحب الفيلا بحديقته وورودِه شيئًا بالمقارنة بما كان يشعر به نوح وهو عائد لماريا، منتصرًا من المعركة، مُحملًا بالتوت. جلسا جنبًا إلى جنب فوق الرصيف أمام البقّال المُجاور لسور الفيلا. أكلت ماريا التوت فأحسّ نوح بالامتلاء، وابتسمت له مُجددًا فأحسّ بالاكتفاء. نزعت غلاف طبق الحلوى وطلبت منه أن يأكل معها، كان يشعر أنه يأكل بسبوسة جدّه لأول مرة في حياته. حكى لها عن زيارات السينما كلّ خميس مع أمّه، عن الأفلام التي شاهدها، الفوشار الذي أكله، والكاميرا الجديدة التي اشترتها له أمّه في عيد ميلاده والتي تعرِض صورًا مختلفةً تتبدّل بضغطة زر. حكت له ماريا عن مغامراتها مع أمّها في شارع السوق المكتظ بالبائعين، عن سفرها لرأس البر مع أقاربها قبل عدة أعوام، عن صباح بائعة الذرة، وعن فستانٍ وعدتها أمّها أن تشتريه لها في العيد القادم.

تكررت زياراتهما لشجرة التوت، أصبح نوح مُحترفًا في التسلق بدون صوت، والقطف بلا جروح. خرجا معًا ذات يوم فأكلا الذرة وشربا القصب ودخلا معًا للسينما المجاورة لمحطة القطار، بعد نهاية الفيلم التفت نوح لماريا واعترف لها بحبه، أحمرّ وجهها وابتسمت ثم غادرت القاعة ركضًا. ظلّ نوح مُستيقظًا تلك الليلة يستعيد أحداث اليوم على شاشة سقف الغرفة وكأنه يطفو فوق سطح الماء وهو يُراقب النجوم ليلًا. أعاده لأرض الواقع صوت جرس التليفون الأرضي الذي لم يدق أبدًا في توقيتٍ كهذا. قفز نوح من سريره ووصل للهاتف قبل أن يَفتح بابُ غرفه أبيه. رفع السماعة والتقطت أذنه ثلاث كلمات:

- **جدتك هانم ماتت.**

كانت هذه هي الزيارة الأولى للموت التي يشهدها نوح ابن الخمسة عشر عامًا. عاش التجربة بكل تفاصيلها؛ الدموع تنساب من أعين أبيه وهو يبحث عن قميص يرتديه، الصمت الخانق داخل السيارة المتجهة للبلدة، الجسد الملفوف بقماش أبيض تنبعث منه رائحة نفاذة، النعش المحمول فوق أكتاف الرجال، والحفرة الصغيرة التي تُفتح، تبتلع جسد جدته الساكن، ثم تُغلق بإحكام.

لم تكن علاقة نوح بجدته هانم تتعدى زياراتهم الشهرية للبلدة وزيارات الجدة السنوية للمدينة. ورغم ذلك؛ كانت تلك الزيارات القليلة تحمل الكثير من التفاصيل التي ترسخت في ذاكرة نوح كرائحةِ جلبابها الأسود الذي لا تلبس سواه، عظام صدرها البارزة التي ترتطم بأنفه عندما تحتضنه، رزمة الجنيهات التي تُعطيها له ليلة كل عيد، وسكر النبات الطيب المذاق الذي لا تخلو حقيبتها منه أبدًا.

كانت كلمات الجدة هانم خليطًا من المصطلحات القروية الغريبة على أذن نوح والدعوات الطويلة التي لا يفهم معناها. كان يتعجب من تبدُّل ملامح أمه وأبيه أثناء وجودها، يصبح أبوه هادئًا، ساكنًا، يتلقى منها الأوامر والنصائح بلا اعتراض، ويُقبل يدها بحنيةٍ يخلعها مع حذائه أمام باب شقتهم فور عودته. وكانت أمُه في وجود الجدة هانم تنزوي في ركنٍ بعيد بلا حراك، يُصيبها شلل مفاجئ تُشفى منه فور رحيل الجدة، تدبُّ الحياة في عروقها، وترتسم الراحة على وجهها. يعود أبوه بعد ذلك لارتداء قناع الغضب، يُوزع الاتهامات عليهم جميعًا؛ يُعاقب نوح ومراد بالنفي في غرفة الصالون حتى المساء لأنهم تركوا مقاعدهم في وجود الجدة أو وجَّهوا لها كلامًا غيرَ مناسب، ويتهم زوجته بالتقصير فيُعاقبها بالصمت لأيامٍ تُحرم فيها من الكلام معه فلا تجد ونيسًا لها إلا الكاسيت الذي لم يكن قد فقدَ بابه بعد.

ذات يوم، كانوا في بيت البلدة وأخرج مراد ورقةً رسم فيها جدته وهي تقف أمام دارها وتستند إلى عكازها الخشبي. صرخت الجدة فور رؤية الورقة كمن مسّها الجن. راحت تلطم على وجهها وهي تقول:

- **يا مصيبتك يا هانم يا بنت خديجة.**

أخذ الأب الورقة فمزَّقها ألف قطعة ثم ألقاها في وجه مراد. جذبت الجدة مراد

بقوةٍ ثم ضمّته لصدرها وقالت في حزن:

- صغير على تعب القلب يا مراد.

سأل نوح أمّه في تلك الليلة عن سبب كُره الجدة هانم للرسم فقالت:

- بسبب جدّك يونس وعمّك إسماعيل الله يرحمهما. حدثت لهما أشياء لا يصحّ أن نتحدّث عنها.

- لماذا؟

أمسكت بصلةً كبيرةً وسكينًا ثم قالت:

- اخرج من المطبخ يا نوح حتى لا يحرق البصل عينيك.

في اليوم التالي لم يذهب نوح للمدرسة، ارتدى ملابسه، حمل حقيبته، خرج من بوابة بيتهم ثم انعطف في الشارع المجاور ودخل بوابة بيت جدّه جميل. تركه الجد في الصالة ثم دخل ليُعد طعام الإفطار. ألقى نوح حقيبته على الأرض، جلس فوق كرسي جدّه الهزّاز يتأمّل صورتي جدته وخالته اللتين تُزينهما أشرطة سوداء مائلة. جاء جميل يحمل صينية الإفطار وقبل أن يجلس سأله نوح عن جدّه يونس وعمّه إسماعيل. قال الجد وهو يصبّ الشاي من البرّاد النحاسي:

- أفطِر قبل أن يبرُد الطعام ثم اسأل عمّا تريد.

هجم نوح على طبق البيض بالبسطرمة كضحية مجاعةٍ تم إنقاذُه. صبّ الجد كوبًا من الشاي ثم قال وهو يُضيف أعواد النعناع:

- جدك يونس الله يرحمه كان رجلًا عصاميًا، اشترى أرضه بنفسه، بنى فوقها الدار التي تزوّج فيها، ورُزق فيها بأبيك ثم عمّك إسماعيل الله يرحمه.

رشف الجد جميل من كوبه ثم أعاده للمنضدة وأمسك سبحته الفضية.

- كانت الأمور جيدةً والحياة مستقرةً حتى أُصيب بمرض أرهق عقله.

- مرض نفسي؟

أومأ الجد جميل برأسه موافقًا.

- كيف أصيب به؟ وماذا حدث له؟

تناول الجد تمرةً من الطبق ثم قال وهو يفتحها:

- هناك تفاصيل من الأفضل ألّا تعرفها يا نوح.

- هل مات عمي إسماعيل غرقًا؟

أعاد الجد التمرة للطبق وهو يهز رأسه.

- عمي إسماعيل انتحر، صح؟

وقع السؤال فوق رأس الجد كدلو ماءٍ مثلج. قال بعد تفكيرٍ طويل:

- لا يُمكنني أن أتحدّث معك بخصوص هذا الموضوع.

- لقد تعبتُ من كثرة الأسئلة الممنوعة.

قال الجد وهو يحمل صينية الطعام:

- لا توجد في الدنيا أسئلة ممنوعة يا نوح، يُمكنك أن تسأل عن أي شيء، ولكنك لن تجد إجاباتٍ لكافة أسئلتك بسهولة.

توقف أمام باب المطبخ، التفت لنوح ثم قال:

- وقد تندم ذات يوم أنك طرحتَ سؤالًا كان في جهلك بإجابته راحةٌ لك.

المرأة التي تسكن في الشقة المواجهة لبيت جميل لم تكن تُفارق شُرفتها أبدًا، كانت تجلس فوق مقعدٍ مبطن بالقطن بجلبابٍ ملوّن لا تُغيره، تفعل كل شيء وهي جالسة في مكانها، تسقي النبات، تُطعم العصافير، تُلاعب القط، تقزقز لبًا، ترمسًا، تأكل عنبًا، تُقوّر كوسة، تُقمّع بامية، تقطف ملوخية، تشرب حلبة، قرفة، وتُحدّث نفسها بصوتٍ مسموع وكلمات مُبعثرة. كانت كلّما رأت نوح واقفًا في شرفة جدّه تقول له في حماس:

- ابني مؤلف قصص عظيم، سيزورني غدًا، وسآخُذ منه قصةً من أجلك.

لم يلتقِ نوح بابنها، لم يرَ إنسانًا يزورها، تهرّب جده جميل من سؤاله عنها، وكان الجد يُرسل لها طبقًا من البسبوسة كل عدة أيام بدون مُقابل.

عرفت ماريا أن أمها مُصابة بسرطان الدم عندما صار إخفاء مرضها مُستحيلًا. أفقدها المرض نصف وزنها، وحطم العلاج ما تبقى لديها من قوة. لم تعُد ماريا تأكل البسبوسة، اقتصرت لقاءاتها بنوح على الصُدَف التي كانت تجمعهما عند بقال تشتري ماريا منه مُعلبات تُبقيهم أحياءً، أو في الصيدلية حيث تجمع أكبر كمٍ من المسكّنات لتقلل عدد الآهات الليلية قدر المستطاع.

كان نوح يحمل تليفون جدّه، يُجرجر السلك الطويل، يخرج إلى الشرفة، يطلب رقم ماريا، ولا يأتيه رد. يتأمل شرفة بيتها المغلقة ليلًا ونهارًا، يتخيل السرطان هذا وكأنه وحش يسكن جسد أمها، وحش تجعله الشمس أكثر قوةً وأكبر حجمًا ولذلك، يغلقون شبابيكهم طوال اليوم.

ماتت أم ماريا، وعاش نوح مشاهد موتِ جدته هانم مُجددًا، حُمل الجسد الملفوف بالأبيض، وُضع في نعش خشبي أصرَّ نوح أن يُشارك في حمله، فتح القبر فمه، ابتلع الجسد المستسلم، وتركت خشبةُ النعش علامةً زرقاء فوق كتف نوح.

منذ وفاة الجدة هانم صار الدكتور مراد كمصباحٍ مطفأ، كان يقضي يومه بين قراءة المجلدات الطبية وبين العيادة التي زاد زوّارها بعدما أصبحت ملاذًا للمساكين الذين لم يجدوا تفسيرًا لأوجاعهم عند الأطباء والشيوخ. لم يكن مُهتمًا بأحدٍ سوى مراد ابنه، كان يُراقبه، يُتابعه، ينصحه، يُرشده، يساعده، يطمئن على مستواه من المدرسين، ويجلب له أفضلهم ليعطوه دروسًا خصوصية في غرفته. أراحه من تدريبات الجري وخوض السباقات، أبعده عن زُقع الشطرنج وصخب المباريات، سمح له بزيارة العيادة، وأجلسه فوق مقعده الإيطالي الذي لم يَمسسه بشرٌ سواه.

حولت نتيجة الثانوية العامة حلمَ الأب بدخول ابنه كلية الطبّ لكابوسٍ مُؤلم. حقق مراد الدرجات النهائية في كل المواد ونجح بالكاد في مادة الأحياء. غضب، ثار، تظلّم، كشف على ورقة إجابته فوجد نصف الأسئلة بلا إجابة، سأله بعينين يتطاير منهما الشرر فقال مراد وهو يُداعب قلقًا وجده أمامه فوق المنضدة:

- استيقظتُ يوم امتحان الأحياء على صداعٍ شديد، أخذتُ قرصًا مسكنًا وظننته سيزول كما يحدث دائمًا، كان الصداع خفيفًا عندما دخلتُ لجنة الامتحان، بعد ساعة تقريبًا بدأتُ أشعر بألم في رأسي وكأن أحدَهم يغرس مفكًا حادًا بداخله،

حاولتُ أن أتحامل على نفسي ولكن الرؤية أصبحت ضبابية، انتقل الألم لعيني فبدأت تدمع بغزارة، وأحسستُ بحرقانٍ شديد وكأنّ ماءً مغليًا قد سكب بداخلها...

سكت مراد يلتقط أنفاسه المتسارعة ثم أتبع:

- أعطاني أحد المراقبين قرصًا مُسكنًا، كان الصداع يزداد قوةً وعنفًا، حاولتُ أن أكتب ولكني لم أتمكّن من التركيز، وقبل أن يهدأ الصداع؛ انتهت مدة الامتحان.

وقف الدكتور مراد في منتصف الصالة، أخذ يَتمتم بكلماتٍ لم يفهمها أحد، لم يجرؤ أحد على النظر مباشرةً لوجهه الغاضب، راح يُوجّه الأسئلة لمراد بلا توقُّف، وظل مراد صامتًا بلا حراك كالمقعد الذي كان يجلس فوقه.

- هل تعرف ماذا فعلتُ من أجلك؟

نظر له مراد بأعين تحجز فيضانًا خلف جفونها.

- كل ما كنت تحلم به كنتَ تجده أمامك، فضلتك على الناس في كل شيء، ورّثتك عقلي وذكائي، أعطيتك اسمي يا بني آدم... اسمي ... ولم تستحقه...

أشار بيده نحو شباك الصالون ثم قال:

- عشرون عامًا وأنا أشيد هذا الاسم المكتوب على يافطة العيادة، عشرون عامًا وأنا محبوس خلف جدرانها. ظننتُ أنك ستحمل لقب مراد الساعي من بعدي، وأنك ستكمل الطريق. ولكنك لن تحمل لقبًا، ولن تُصبح شيئًا.

انفجر مراد باكيًا بعدما فقد قُدرته على الصمود. كانت هذه هي أول مرة يراه نوح يبكي منذ أن كانوا أطفالًا، وأول مرة يشعر بالتعاطف مع أخيه والشفقة لحاله. نهضت أمهما واتجهت لمراد بخطواتٍ مُترددة، وضعت يدها على ظهره ثم قالت بصوتٍ خافت وكأنها لا تريد أن يسمعه أحد:

- الولد يقول لك إنه كان مريضًا، هل تلومه على المرض؟

أخذ الدكتور مفاتيح سيارته ثم قال وهو يفتح باب الشقة:

- أنا الذي أستحقُّ اللوم بعدما وثقت في إنسان أقصى طموحاته أن يُصبح رسامًا... أو حلوانيًا.

انقلبت الأحوال في العامين التاليين لنكسة مراد، تحسنت علاقة الأخوين بعدما هدأت حدة المنافسة، صعد نوح لقطار الثانوية العامة بعدما ترجّل منه أخوه بأيامٍ قليلة. لم يكن مهتمًا بالدرجات، بالنسب المئوية، بالمراجعات، بالدروس الخصوصية، ولذلك كان مذهولًا عندما حقّق مجموعًا مرتفعًا. تحوّل بيتهم لقبلة للمباركين من الأهل والجيران، تراصّت صناديق الكوكاكولا في المطبخ، بلّت أمّه الشربات، وزّع الجد جميل البسبوسة والكنافة، امتلأ درج مكتبه بالأوراق النقدية التي كان يدسّها في جيبه كل من يزورهم، ارتفعت أصوات عدوية وحكيم المنبعثة من الكاسيت الذي فقد بابه في حادثٍ أليم، وأحس نوح أنه شخص مرئي لأول مرة في حياته.

- اجلس هنا يا نوح.

أشار الدكتور مراد نحو المقعد الإيطالي في عيادته. جلس نوح غير مُصدق أنه شمح له بالجلوس.

- ارفع رأسي مرةً أخرى وسيصبح هذا مكانك للأبد.

لم يبذل نوح في حياته مجهودًا مثلما فعل في هذا العام. كان خائفًا، فتحمسًا، متوترًا، مشحونًا بكلماتِ أبيه، وجائعًا لنجاحٍ خرم منه عمرًا كاملًا. مرّت الساعات ببطءِ كسلحفاة عجوز وانقضت الأشهر بسرعة كأرنبٍ بري.

استيقظ نوح من حلمٍ استمر لعامٍ كامل على رائحة قميص أبيه الذي ضمّه لصدره لأول مرة منذ ولادته، أهداه ساعته الأورينت الفضية، سماعته الطبية، وأوصله بسيارته للجامعة في أول أيامه كطالبٍ بكلية الطب.

بعد أيامٍ قليلة كان نوح يرتدي معطفه ويقف وسط زملائه الذين صنعوا دائرةً حول جثة مفتوحة البطن في منتصف غرفة التشريح. رائحة الفورمالين النفّاذة تُداعب أعصاب الأنوف، البنات ينظرنَ للجثة بوجوهٍ مشمئزة توشك على القيء، المحاضِر يصف العضلات، يُسمي الشرايين، يُحرّك الأصابع، الطلّاب يُسجلون الملاحظات في الدفاتر، ونوح يفكر في القرارات الخاطئة التي اتّخذها هذا المسكين، المباريات التي خسرها فوق رقعة الحياة، والسباقات التي ظنّ أنها ستحمله لقمم المجد، وانتهت بإيصاله لطاولة المشرحة.

-٢-

ظِلٌّ يظهر ليلًا

طرقت ماريا الباب برفقٍ ثم فتحته ودخلت، نهضت السيدة الجالسة خلف مكتبها، صافحتها بحرارة ثم عادت للجلوس مُجددًا. كانت في منتصف الخمسينيات، وجهُها مُبتهج خالٍ من الخطوط والتجاعيد، شعرها أسود فاحم معقوص بربطةٍ بيضاء، ترتدي بذلةً سوداء شديدة الأناقة تكشف عن جسدٍ مُتناسق، وتمتلك ابتسامةً هادئةً لا تُفارق وجهها. أشارت لماريا فجلست فوق المقعد المواجه للمكتب.

- كيف حالك يا ماريا؟

قالت مبتسمةً:

- أنا بخير ...

عبس وجهها فجأةً ثم قالت وهي تهزُّ رأسها نفيًا:

- لا، لست بخير. لو كنتُ بخير لم أكن سآتي هنا.

انفجرت في عصبية:

- دكتورة نادين أنا آخذ علاجًا منتظمًا للاكتئاب ولا يرحل، أتناول المهدئات كاللبان ولا أهدأ، أشعر أن الأدوية تزيد الأمر سوءًا ولا تُفيد بأي شيء.

قالت الطبيبة بهدوء:

- المشكلات النفسية تحدثُ في الغالب بسبب اضطرابٍ في كيمياء المخ. وظيفة الأدوية هي ضبط منسوب المياه في الكوب. إذا كان سبب المرض نقصًا تزيده، وإذا كان سببه زيادةً تُقللها. ولكن، ليست الأدوية والمهدئات هي الحل الأفضل دائمًا.

أشارت نحو شاشةٍ معلقة فوق الحائط ثم قالت:

- اعتبري أن هذه الشاشة هي العقل، وأن المرض النفسي هو مجرد عُطل جعل

الصورة المعروضة تهتز، تفقد جودتها، أو تختفي. الدواء يُمكنه إعادة الصورة لحالتها الطبيعية، ولكننا لو لم نكتشف مصدر المشكلة، ستكون معرضةً دائمًا للمزيد من الأعطال.

ابتسمت بعزوبة ثم أتبعت:

- الأهم من تصليح الشاشة هو أن نبحث بين الأسلاك ودوائر الكهرباء عن سبب العطل، أن نعود لفترة تصنيع الشاشة، تغفيلها، تطويرها، للأعوام التي عُلقت فيها فوق الحائط، نبحث عن مصدر الغبار الذي كساها، عن الأيدي التي تكاسلت عن تنظيفها، عن الفيشة التي مدّتها بتيارٍ زائد، أو بخلت عليها بما يكفي لإضاءتها.

قالت ماريا بنبرة يائسة:

- ستقولين إننا هنا لنتكلم، وسأقول لك إنني لم أغد قادرةً على الكلام، لم أعد أمتلك طاقةً للحكي، ولا رغبةً فيه. لقد تحدثت، حكيت، فضفضت، صرخت، استغثت، ولم يشعر أحدٌ بحجم مُعاناتي.

- هذا لأن الناس لا يفهمون أننا نريد فقط أن نحكي لنتخفَّف لا للحاكم. يجلسون فوق مقاعد القضاة فيحكمون علينا بالذنب والتقصير، يُغدقوننا بالنصائح، يُتفِّهون من مشكلاتنا، يؤكدون أن معاناتهم أكبر، همومهم أثقل، وأن كل كوارثنا بسيطة لا تستدعي كل هذا القلق.

- ولهذا، لم أعد أومن بفائدة الكلام.

- صدِّقيني يا ماريا، جميعنا نحتاج لشخصٍ مُحايد يُنصت لنا بلا أحكام ولا نصائح.

سكتت ماريا، أمسكت الطبيبة ملفًا ورقيًا، فتحته ثم قالت وهي تقرأ:

- ماريا أنت مُطلقة، خمسة وثلاثون عامًا، لديك بنت واحدة، تخرجتِ من معهد السينما، قسم إخراج ...

قاطعتها ماريا في عصبية:

- كيف يمكن لكلماتٍ قليلة أن تختزل عمرًا كاملًا بهذه البساطة؟

رفعت نادين رأسها بابتسامتها المعهودة، قالت ماريا:

- أنا آسفة، لم أقصد أن أتعصب، ولكني أتعجب من فكرة تلخيص رحلة الإنسان في بضع كلمات؛ مُطلقة، أم، تقدير جيد، مُخرجة. كل واحدة من تلك الكلمات تحجب وراءها قطعةً من عمري، عددًا من السنوات التي ولّت بلا عودة، جزءًا من روحي احترق وتلاشى رماده كأنه لم يكن. أشعر أحيانًا أنني لستُ إنسانة من لحم ودم، وأنني مجرد ورقة مقصوصة من نتيجة حائط، ورقة تضمُ عدة كلمات تُعجب قارئها فيبتسم أو لا تروق له فيمزقها ويترك الهواء ينثر حروفها.

نهضت نادين ثم توجّهت للثلاجة، أخرجت زجاجةً ثم ناولتها لماريا، شربت ماريا نصفها وكأنها تُطفئ حريقًا مشتعلًا في معدتها، قالت الطبيبة وهي تجلس:

- في الاستمارة التي ملأتِها، كتبتِ أنك ولدتِ في مدينة المحطة. أتفهّم أنه ليس اسمًا حقيقيًا ولكن، الفضول يدفعني لكي أسأل، لماذا تُلقّبينها بمدينة المحطة؟

عادت ماريا بظهرها للوراء ثم قالت:

- اعتدتُ أن أسمّيها هكذا، ربما لأنني كنتُ أسكن أمام محطة القطار، وربما لأن أغلب سكان المدينة يتعاملون معها وكأنها مجرد محطة، يَحلم سكان القرى المجاورة بأن يصل قطارهم إليها، يحلم سكانها بأن يمضي قطارهم مبتعدًا عنها، وتجدين أهلها دائمًا يُخططون للرحيل لمدنٍ أخرى تناسب أحجام حقائبهم وأحلامهم.

ابتسمت نادين بدفءٍ ثم قالت:

- بالأمس سمحتُ لنفسي، بعدما عرفتُ من الاستمارة أنك مُخرجة، أن أبحث عن أفلام من إخراجك على اليوتيوب. أنت مُبدعة يا ماريا، لا أُجاملك، هذا أقل وصف لأعمالك.

قالت ماريا ساخرةً:

- لو كنتُ مبدعة لما رفض المنتجون أفكاري وألقوا بمشاريعي في صناديق القمامة. هذه الأفلام مجهود شخصي يا دكتورة، مجرد فيديوهات صوّرتُها بكاميرتي الشخصية.

- لا أعرف الكثير عن عالم الأفلام ولكني، كمشاهدة، أرى أن أفلامك – رغم قصرها وبساطتها – تناقش قضايا وأفكارًا هامّة للغاية، ثم إن الرفض يا ماريا هو أكبر بوابة للـ ...

قاطعتها:

- للنجاح؟... للوصول؟... للقبول؟... هذا هراء كُتب تنمية بشرية يا دكتورة. الرفض بوابة للإحباط، للتوقُّف، للاستسلام، لتغيير مجالك الذي أضعتِ شبابك في دراسته ثم جاءت مطرقة الرفض لتحطّم أحلامك وطموحاتك.

أخرجت ماريا جهاز تدخينٍ إليكتروني من حقيبتها ثم سحبت منه نفسًا أخرجت بعده سحابةً كثيفةً من الدخان.

- آسفة، لم أستأذن.

- افعلي ما شئتِ يا ماريا، خُذي كل وقتك لتهدئي، وتوقّفي عن مُناداتي بالدكتورة، لست عجوزةً لهذه الدرجة.

ابتسمت ماريا، أمسكت نادين ريموت التلفاز ثم قالت وهي تُوجهه نحو الشاشة المعلقة:

- ما رأيك لو شاهدنا فيلمًا من أفلامك معًا؟

هزت ماريا رأسها في لامبالاة، ثم أدارت المقعد نحو الشاشة ببطء.

بدأ الفيلم بمشهد لطفل يلعب بكرة بلاستيكية في غرفته، يركلها فتصطدم بالحائط ثم تعود إليه فيركلها مُجددًا، تقترب الكاميرا من وجه الطفل فتظهر ضحكةٌ مُمتدة من الأذن للأخرى، وقطرات عرَقٍ تتصبّب من رأسه، تبتعد الكاميرا، تُغادر غرفة الطفل، تظهر صالة بيت مرتبة ونظيفة، تقترب من باب غرفة مُغلق، يُفتح الباب ببطء ثم تدخل الكاميرا فتكشف عن رجل وامرأة تدور بينهما مشادّة كلامية حادة. كان الفيلم صامتًا ولذلك لم يتّضح عمّ يتعارك الزوجان، كان وجهاهما مكسوَّين بالغضب، الرذاذ يتطاير من أفواههما مع الكلمات المبهمة، تُشير الزوجة لزوجها بسبّابتها مُتهمةً إيّاه بشيءٍ ما، يُكوّر الزوج قبضته ثم يلكم الباب الخشبي عدة مرات حتى تسقط قطعة الزجاج المثبتة في مُنتصفه، تقترب

الكاميرا من الأرض فيظهر لوح الزجاج المتفتت لقطع صغيرة، ترتفع الكاميرا لتكشف ملامحهما المنهمكة في الجدال ثم تبتعد عنهما ببطء، يُغلق الباب فيختفي جسداهما ويبقي الوجوه ظاهرةً من فتحة الزجاج المكسور. تبتعد الكاميرا لتكشف الصالة مجددًا، قُلبت المقاعد، ثُقب التلفاز القديم الطراز، سقطت البراويز وتكسرت، اختفت النجفة واستبدلت بسلكٍ كهربي سميك يتدلّى من منتصف السقف ويُطلق شررًا مُضيئًا. تقترب الكاميرا من غرفة الطفل ببطء، يُفتح الباب، تدخل الكاميرا لتكشف عن غرفة خاوية، تلتفت للسرير الصغير، تقترب ببطء، تُرفع الملاءة المتدلية فيظهر الطفل النائم على بطنه، تقترب الكاميرا ببطء، يضع الطفل إصبعيه في أذنيه، تقترب الكاميرا من وجهه لتظهر خوفه، حزنه، ودموعه الساقطة من عينيه الحمراوين، تبتعد الكاميرا ببطء، تلتفت لركن الغرفة ثم تقترب فتظهر الكرة البلاستيكية الملقاة بجوار حقيبة الطفل المدرسية، تبتعد الكاميرا، تخرج من الغرفة، تعبر الصالة، تخرج من الشقة ثم يُغلق بابها، وتُظلم الشاشة.

- هل هذا الفيلم جزء من طفولتك؟

- بل هو طفولتي كلها.

وقفت ماريًا ثم راحت تسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا وهي تحكي:

- لا أتذكر أن هناك يومًا واحدًا مرّ على بيتنا بدون مشاكل. ذكرياتي مشوشة، ولم يعد يتبقى لديّ من طفولتي سوى بضع مشاهد مقطوعة من أفلامٍ حُذفت بالكامل. كانا يتعاركان كل يوم، كل ساعة، ينظران لبعضهما بكراهيةٍ لم أفهم أبدًا لماذا يشعران بها ويُكملان الحياة معًا. سأحكي لك عن مشهدٍ مرّ عليه ثلاثون عامًا ولسببٍ ما لم أنسه أبدًا.

وقفت بضع ثوانٍ ثم أكملت السير وأتبعت:

- عدتُ من المدرسة بقميصٍ مقطوع، كانت أمي واقفةً في المطبخ، تُعد طعام الغداء، رأتني فشهقت في فزع، وعندما فتح أبي باب الشقة انطلقت نحوه وهي تجرّني من ذراعي بعنف. ألقت اللومَ عليه لأنه لم يشترِ لي قميصًا جديدًا. أخرج من جيبه جنيهًا ورقيًا، أقسم أنه لا يمتلك غيره، أنه لم يتناول لقمةً منذ الصباح، وأنه جاء من عمله سيرًا على الأقدام ليوفر ثمن المواصلات. قال إنها لا تعرف كيف تُدير

بيئًا، كيف تُدبِّر قرشًا، كيف ترعى طفلًا. قالت إنه شحات، كسول، يُضيع وقته في المقهى بدلًا من البحث عن وظيفةٍ إضافية نُسدد بها ديوننا المتراكمة. سبَّ أهلها، عابت رجولته، دفعها بقوةٍ فارتطمت بالحائط، جرح رأسها، نزل خيطٌ سميك من الدماء على عباءتها البالية، فتح باب الشقَّة ثم غادر، انحنيتُ لأمسح جُرحها بكمِّ قميصي المقطوع.

توقفَت عن السير ثم قالت:

- ما زلتُ أتذكر أول ما قالته أمي بعدما استفاقت.

نظرت لنادين ثم أردفت:

- (لا تقلقي يا ماريا، سأشتري لك أجمل قميص في الدنيا).

أدارت نادين المقعد لتواجِهَ ماريا التي وقفت في منتصف الغرفة تمامًا.

- كيف كانا يتعاملان معك؟

- كنتُ بالنسبة لهما الصغيرة التي لا تكبر أبدًا. كانا ككُلِّ الآباء، يؤمنون أن أولادهم – ما داموا صغارًا – فإنه من الأفضل لهم أن يجلسوا بهدوءٍ أمام المنضدة، يضعوا المناشف فوق صدورهم، يأكلوا ما يُوضَع في أطباقهم بدون اعتراض، ويقتنعوا بأن ما يُقدَّم لهم من طعامٍ هو الأفضل والأكثر إفادةً حتى لو كان ملحه زائد أو طعمه ماسخ.

سألتها الطبيبة:

- هل كان أحدهما يُعاملك بقسوة؟

مشت ماريا نحو الشبَّاك، سحبت نفسًا من جهاز التدخين الإليكتروني ثم نفثت الدخان وهي تتأمل المصطفِّين أمام أحد المطاعم في انتظار دورهم. التفتت ثم قالت:

- بالعكس، كانا يبذلان كلَّ جهدهما لإسعادي، كل واحد منهما بطريقته. أمي كانت تأخذني معها في كل مكان، تقترض من الناس وتدخل في جمعياتٍ لتشتري لي ما أريده، نأكل الذرة، نتمشى على الكورنيش، نتفرج على فتارين المحلات،

نزور صديقاتها الساكنات في شوارع ضيقة وحوارٍ بعيدة. أتذكر أيضًا أنني كنتُ أذهب مع أبي لبورصة الساعي، المقهى المجاور لبيتنا. أشاهده وهو يلعب الشطرنج باندماج، أشرب الكوكاكولا والعناب المثلّج، ويشتري لي أصحابه البسكويت واللبان. كنت أركب معه في القطار المتّجه لبلدته حيث كنتُ ألعب مع بنات أعمامي حتى يَغلبني النعاس، وأستيقظ في سريري صباح اليوم التالي لأجده قد ذهب لعمله. هكذا كانت طفولتي، جولات مُنفصلة... هل تعرفين؟

قالت وهي تقترب من المكتب حيث تجلس الطبيبة:

- لا أتذكر أنني رأيتُ أبي وأمي مجتمعين معًا في مكانٍ واحد إلّا وهما يتعاركان. لم نخرج كعائلة، لم نُسافر لمصيف، لم نتجمّع حول مائدة، لم نشاهد فيلمًا في التلفاز.

نظرت للطبيبة ثم قالت:

- أليس هذا طلاقًا يا دكتورة؟

قالت نادين:

- يظن أغلب الأزواج أن بقاءهما معًا في بيتٍ واحد يضمن استقرارًا لأولادهم ويجعلهم يعيشون طفولةً صحية.

قالت ماريا وهي تسير نحو الشزلونج:

- طفولة؟... لا أعتقد أنني مررتُ بهذه المرحلة.

تمدّدت فوق الشزلونج ثم قالت وهي تنظُر لسقف الغرفة:

- لقد اشتغلتُ وظائف كثيرة يا نادين عندما كنت طفلة. اشتغلتُ قاضيًا، يحكي لي الطرفان القصة من زوايا مختلفة، يدافع كل منهما عن نفسه، وينظران لي في انتظار حُكم يُبرئ أحدهما ويُدين الآخر. اشتغلتُ ساعي بريد، أحمل الرسائل بينهما طوال الوقت، «أمي تقول لك الطعام في المطبخ»، «القميص مغسول»، «الإيجار مطلوب»، «الحوض يحتاج لسباك»، «العيد يقترب والثلاجة خالية من اللحم». «أبي يقول لكِ النقود فوق المنضدة»، «الجمعية سيقبضها بعد شهر»، «القميص يحتاج لحياكة»، «المعدة ملّت الكشري». اشتغلت جسرًا يصل بين بلدتين يكره

سكانهما بعضهم بعضًا، حبلًا يربط بين شخصين يفعلان كل شيء لقطعه، ومصباحًا ضوؤه خافت ورغم ذلك، يكتفي بنوره سكان البيت. اشتغلتُ كل شيء يا مريم إلا أن أكون طفلةً، لم أقبل في هذه الوظيفة أبدًا.

سكتت برهةً ثم قالت:

- قدّما لي كلّ ما استطاعا تقديمه، ولكن الأمر كان يُشبه أكل التفّاح في بالوعة.

التفتت للطبيبة وسألتها:

- هل تفهمينني؟

- نعم، أفهمك يا ماريا.

عادت تنظر للسقف ثم قالت وكأنها تُحدث نفسها:

- ثم جاء نوح ومدّ لي يده، أخرجني إلى الدنيا، وأضاء لي مصابيح لم أكن أعرف أنها موجودة.

- يُضايقك لو تحدّثنا عنه؟

سكتت ماريا مُطولًا حتى ظنّتها نادين لن تتحدّث ثم قالت وهي تبتسم:

- كل الذكريات تبخّرت وتلاشت إلا ذكرياتي مع نوح، وكأن تلك الأيام مُغطّاة بطلاءٍ مضاد للنسيان. أتذكّر كل فيلم دخلناه معًا في السينما، طعم الفوشار وملمس المقعد، أتذكر جدّه جميل، كان رجلًا طيب القلب، أكلت من يده أجمل بسبوسة في الدنيا. أتذكر تلك اللوحة التي كانت مُعلقة فوق الحائط وراءه... (هو عليّ هيّن)... كنتُ أحملق فيها حتى يقطع لي الجد جميل البسبوسة. أتذكّر الذُرة، الكوكاكولا، والتوت.

ضحكت ماريا بانتشاءٍ ثم أتبعت:

- أتذكّر شكل نوح وهو يتسلّق شجرة التوت، يديه المتخشّبتين، عروقه المنتفخة، أتذكّر كفّه المصبوغ بلون التوت البنفسجي وهو يفتحه لي لألتقط الحبّات بينما يتأمّلني كلوحةٍ سُرقت من أحد المتاحف. أتذكر الكاميرا الحمراء. أتذكّر المرة الوحيدة التي دخلتُ فيها بيته ورأيتُ مكتبه وغرفته ...

صمتت دقيقةً ثم بدأت تبكي، وارتفعت حدّة البكاء حتى اهتز جسدُها، تركتها نادين تبكي وتنشج، كانت تعرف أن أكبر مكاسب تلك الجلسة هي البكاء. نهضت ماريا ثم اتّجهت للمكتب حيث تجلس نادين، سحبت منديلًا من العلبة فمسحت وجهها ثم جلست فوق المقعد أمام الطبيبة وقالت:

- لم يتغيّر بيتُنا إلا عندما أُصيبت أمي بسرطان الدم، عندما عرفنا حالتها كانت قد وصلت لمراحل المرض الأخيرة، امتلأ بيتنا بعُلَب الأدوية، أكياس المحاليل، ونتائج التحاليل. تحوّلت أمي تدريجيًا لهيكلٍ عظمي، بقايا إنسان، خارت قواها فالتصقت بسريرها، واختار أبي الهروب فالتصق بمقعده في بورصة الساعي ولم يُفارقه حتى فارقت أمّي الدنيا.

فتحت زجاجة المياه، ارتشفت منها ثم قالت:

- هل تعرفين؟ ... دائمًا ما كنتُ أظن أنني تجاوزتُ كل شيء، ظننتُ أنني تجاوزت خناقات أمي وأبي، المعارك التي كنت فيها شاهدًا مُختبئًا أسفل سريره، الأيام التي سبقت وفاة أمي عندما كانت تصرخ من الألم صبحًا وليلًا. ظننتُ أنني تجاوزت نوح، ظننتُ أنني تجاوزت أحلامي المسروقة، واكتشفتُ أنني لم أتجاوز شيئًا، كنتُ أخفي كل شيء وراء ستارة شفافة، ستارة تسمح لي برؤية ما أردت اخفاءه، وتستسلم لأقل نسمةِ هواء فتطير مبتعدةً لتكشف ما ظننته مدفونًا.

أشارت للسقف ثم قالت:

- ما زلتُ، كلما تمددتُ فوق السرير، أراه بوضوح، هذا الظل الذي يظهر ليلًا ليُذكرني بأنني كنتُ السبب الوحيد لخلافاتِ أمي وأبي، بأنني لم أنجح في الإصلاح بينهما، بأنني لم أستطِع أن أخفّف آلام أمي، بأنني جلستُ بلا حراكٍ أشاهد الحياة وهي تُسحب من جسدها بمحقنٍ مؤلم، بأنني لم أتمسك، لم أتخلّ، ولم أحاول بالقدر الكافي.

تنهدت ثم قالت:

- أتعرفين يا دكتورة نادين ما هي أكبر مشكلاتي؟

نظرت لها متسائلةً فقالت:

- أنني كنت أبحث طوال الوقت عن فرصة بداية جديدة، عن صفحة بيضاء، ولكن الماضي ظلّ ملتصقًا بأقدامي كعلقةٍ تمتص الدماء ولا تُنتزع. حملت عُقد طفولتي فوق رأسي في كل مكان، درست، اشتغلت، تزوجت، وأنجبت. كنت من الخارج أبتسم للجميع، ومن الداخل كنت خائفةً، مهزوزةً، أتعامل مع الناس وكأنهم أسماك زينة تسبح في حوض صغير، وأنا أشاهدهم من وراء زجاج يحجبُ عني أصواتهم. لم أنعم بتلك الصفحة البيضاء أبدًا لأنني فور ملامسة أصابعي لها كانت تتساقط أمطارًا من حبرٍ أسود تُلطّخها، وتذكّرني بماضٍ لا يُنسى ولا يُمحى.

ابتسمت في حسرة ثم قالت:

- عندما كنت طفلةً، كنت كثيرًا ما أسمع صوتًا يأتي من تحت السرير، أتخيّل وحوشًا عملاقةً أقرأ عنها في القصص وأسمع أساطيرها في الحكايات، يبلغ بي الخوف أشدّه فأصرخ، يأتي أبي ركضًا فيفتح النور ثم يحتضنني، أحكي له فينحني ثم يزحف على بطنه فيدخل تحت السرير، ويعود بكيس حلوى فارغٍ أو ورقةٍ مُنكمشة، يرفع ما يجده أمام وجهي ويؤكد لي أنه لا يُوجد شيء يستدعي الخوف، وأنها مجرد ورقة ليس إلّا...

سكتت قليلًا ثم قالت:

- عندما كبرت أدركت أنها لم تكن أبدًا مجرد ورقة، وأن الحياة مليئة بوحوشٍ ترقد تحت السرائر، تُصدر أصواتًا إذا أردنا نومًا، وتُذكرنا بما حدث إذا رجَونا نسيانًا.

-٣-

قطف وردة

لا تريد ليلى شيئًا من الدنيا سوى الهروب؛ الهروب من نظراتهم، من أصواتهم، من روائحهم، من تشابههم رغم اختلاف ملامحهم وملابسهم.

خرجت إلى الشرفة التي احتضنتها لأعوامٍ لا تعرف لها عددًا. أخرجت سيجارة من علبتها، أشعلتها بعود ثقابٍ ثم امتصت منها أكبر كمٍّ من الدخان يمكن لصدرِها أن يتّسع له. نظرت للكاسيت الذي فقد بابه في حادثٍ أليم وبات منذئذٍ ونيسها الذي تستمع لكلماته ويحترم صمتها. التفتت لبوابة المحطة المتكدّسة بالمئات ممن أضناهم البحث عن أحلامهم البعيدة وأنفسهم المفقودة. من بينهم رأت نوح، يرفع لها يديه بنفس الطريقة التي كان يُحييها بها عندما كانت تنتظره وهو عائد من مدرسته، يبتسم رغم العزق الذي يتصبّب من جبهته، ويُخفي إحباطاته خلف قناعٍ من الصمت حاكتْه له بأصابعها وورّثته إيّاه قبل مولده بقرون.

كل شيء يُذكّرها بيوم وصولها لتلك المدينة. الشتاء الذي يُعلن عن استيقاظه بزخاتٍ من المطر لا تسقي زرعًا ولا تستدعي هرتًا، الهواء الذي يَعِدُ الوجوه بتعويضٍ مُرضٍ عن فيضانات العرق، والشمس التي تُظهر وجهها من وراء الشحب على استحياء كطفلةٍ تختبئ من أمّها خلف الستائر. عندما توقف القطار، ولامست أقدامُها الصغيرة رصيف المحطة، لم تكن المدينة مزدحمة هكذا، لم تكن عيناها تعرف شيئًا عن الكآبة، ولم تكن قد أُصيبت بداء الصمت بعد.

أمام بوابة المحطة وقف أبوها يتأمل المشهد، يسبح بجسده النحيف في جلبابه الفضفاض، يحمِل فوق كتفه حقيبةً ابتلعت ما استطاع جمعه من الدنيا، حقيبةٌ كُسرت يدُها، اهترأت قماشتُها، وأرهقها التنقُّل بين المُدن والقُرى.

كانت ليلى تختبئ من أعيُن الناس خلف جلباب أبيها، ترتدي فستانًا يُشبه السماء في زُرقته، تقضم أظافرها، وتقبض على يد أختها عزة التي هلّلت عندما أخذت فستان ليلى القديم مثلما هلّلت عندما رأت بائع الأقراص يُنادي على بضاعته.

- يا جميل... قُرصة يا جميل... قُرصة عجوة...

انتهت مفاوضات جميل والبائع حول ثمن تلك الفرصة التي راحت عزة تلتهمها بسعادة لا تُوصف وهم يَعبرون الشارع الواسع. وقفوا يُراقبون ما يحدُث في بورصة الساعي بذهول؛ معارك الشطرنج، جلاليب الرجال، قرقرة الشيشة، صوت القهوجي، وشحب الدخان التي تتصاعد من الأفواه.

خرج رجل من المقهى ثم راح يتحدَّث مع أبيها، كان يرتدي قميصًا مفتوح الصدر، تتدلَّى سيجارة طويلة من طرف فمه، ويتعرَّق بغزارة رغم برودة الجو. طلب من جميل أن يتبعه فحمل حقيبته، أمسكت ابنتاه في طرف جلبابه، ودخلوا جميعًا للمحلّ الخاوي الذي وقف ذو القميص المفتوح في منتصفه ثم قال بصوتٍ ردَّدت صداه الجُدران:

- أنت محظوظ يا حاج جميل، كان هذا أكبر محلّ ساعات في المدينة منذ أيام الملك، عم ميلاد صاحب العمارة سينتقل للحياة مع ابنه في إيطاليا ولذلك يريد أن يؤجِّر الشقة والمحلّ بسرعة.

اقترب من جميل ثم قال:

- والله لو أعطاني عم ميلاد المزيدَ من الوقت سأحضِر له زبونًا يدفع ضعف ما ستدفعه ...

أشار للشارع ثم قال متحمسًا:

- المحل ع الشارع الرئيسي وقُدّام محطة القطار ...

قاطعه جميل ضاحكًا:

- هذا رزق عزة بنتنا البركة... ولا تقلق يا أستاذنا، عمولتك محفوظة.

توقفَت أمام البوابة عربة تحمِل الأثاث الذي تكسَّرت سيقانه من كثرة الفك والتركيب. وضع كل شيءٍ في مكانه فدبَّت الحياة في شرايين الشقة. وقف جميل في منتصف الصالة يحمِل صورة زوجته التي ماتت وهي تلِد عزة، وبعد تفكيرٍ طويل استقرَّ على تعليقها فوق الجدار المواجِه للأريكة. وقفت ليلى تتأمَّله بانبهار وهو يكتب بفرشاة طلاء فوق قطعة خشبٍ انفصلت عن السرير أثناء نقله، كان الخط عاديًا، الخشبة مُتهالكةٌ، واليد مُرتعشةٌ. كتب جميل بخطِّ يده (هو علي

هين)، ودعا ربّه وهو يُعلق لوحته في المحل الفارغ من كل شيء أن يفتح له باب رزق يكفيه، يُرضيه، وعن مدّ الأيدي يُغنيه.

وقع في غرام حلويات جميل كل من تذوّقها، وتراصّت الطوابير أمام صواني البسبوسة والكنافة التي لا يصنع سواهما. أحبّ جيرانه وأحبّوه، شاركهم مناسباتهم ووضعوا بناته فوق رءوسهم، كان يوزّع أطباق الحلوى في الأعياد، يُرسلها لبيوت المحتاجين، ويصعد والصينية فوق رأسه ليبارك للمتزوّج والناجح. اشترى لبناته فُستانين من أفخم محالّ المدينة، أخذت ليلى تدور أمام المرآة كراقصٍ تنّورة في ليلة المولد، ووقفت عزة بجوارها تُهلّل وتُصفق:

- **عزة عروسة... عزة عروسة ...**

ضحك جميل كما لم يضحك من قبل، انتقى من الطبق بلحةً طريةً ذكّره مذاقها بيد أمّه ورائحتها، مسح ذرّة ترابٍ تجزّأت ولمست الجرامافون الذي اشتراه من بائع أنتيكا في سوق المدينة، وضع الإبرة فوق الأسطوانة فخرج صوت أسمهان كملاكٍ أُذِن له أن يتحدث.

- **لماذا لا تسمع إلّا هذه الست؟**

سألته ليلى فنظر جميل لصورة زوجته المُعلقة فوق الحائط ثم قال:

- **بسبب أمّك الله يرحمها.**

سرح في الصورة لدقيقةٍ ثم قال مُسترسلًا:

- **اشتريتُ راديو صغيرًا مع أول قروش دخلت جيبي، كانت أمّي تتربع فوق الأرض بجواره، تدندن مع أم كلثوم وفريد الأطرش كتلميذ في الكتّاب يسمع دروسه، وعندما يأتي دور أسمهان كانت تقفز من مكانها، تحمل المخدّة التي ننام عليها، تضمّها لصدرها وتتحرّك كراقصات الباليه ...**

توقف عن الكلام ليبتلع دموعه ثم أتبع:

- **لم أكن مُهتمًا بالأغاني والمُطربين، اشتريتُ الراديو لكي أعرف الأخبار، ولكنّي كنتُ أنتظر أن تُغني أسمهان حتى أرى أمك ترقص هكذا. كان حظها في الحياة قليلًا، عاشت معي في ظروفٍ لا تحتمل، سكنت معي في أماكن يرفض الكلب أن**

يبيت فيها، قالوا لنا لا أحدَ ينام بدون عشاء، ولم يطرق أحدهم بابَنا بطبقِ فول، ثم رحلت عن الدنيا فجأةً، غادرت ولم تترُك لي شيئًا سوى ذكرياتٍ شاقة وبروازٍ مكسورٍ وصوت أسمهان.

كان مصطفى يسكن في العمارة المقابلة لعمارتهم، تطلُّ الشرفتان على بعضهما البعض، وتدور أمُه في البيت كالنحلة بعدما اختطفت الحرب زوجَها وتركتْها وحيدةً مع ولدٍ يبحث عن أبيه بلا توقُّف.

تحول مصطفى من طفلٍ وحيدٍ لشابٍ انطوائي، كان يعيش في عالمٍ خاصٍ به، عالم يترنح بين الواقع والخيال كأرجوحة لا تتوقف عن الاهتزاز. أغلق دائرته بإحكام فلم يعرف إنسانٌ ما بداخلها، ثم فتح بوابتها لليلى التي أدهشها ما رأته بالداخل.

عرَّفها على كتُبه، رواياته، موسيقاه المفضلة، أسراره الدفينة، الأفلام التي رآها في سينما وسط البلد، الخواطر التي يكتبها بدموعه، والمخاوف التي أقحمت نفسها في صندوق أحلامه. تفتحت زهرة ليلى، بكت في حضن جارتها عندما نزفت دماء دورتها لأول مرة، وعندما وجدَها جميل تُغلق باب غرفتها بالساعات، أدرك أن ليلاه قد نضجت.

تحوّلت ليلى من طفلةٍ محدودة الفكر لفتاةٍ تقرأ لمحفوظ والسباعي وديكنز، تحفظ أغاني البيتلز ودين مارتن، تملأ الكتب بأشعارٍ من تأليفها، وتقف أمام مرآتها كل يومٍ بفستان تنتقيه من دولابها المزدحم.

لم تكن عشرة أعوام كافيةً لكي يتغلَّب مصطفى على خجله، لم يُصارحها بحُبه أبدًا، لم يقُل لها جملةً واحدةً من الجُمل التي قيلت على لسان أبطال رواياته وأفلامه، تلك الجمل التي حفظها عن ظهر قلب، وقضى آلاف الليالي يتدرب على نُطقها أمام المرآة ثم توقفت الكلمات على حافة لسانه عند رؤيتها.

انتظرت ليلى تلك الكلمة لأعوام، وعندما لم تأت، أدركت أنه ليس مُستعدًا، ليس متأكدًا، أو أنها أساءت الفهم.

ابتعد مصطفى بدون مُقدمات، وبلا أسباب. صار يتهرَّب من اللقاء، يواجه أسئلة ليلى بردودٍ مقتضبة، يقضي صباحه ومساءه في لعب الشطرنج الذي لم يكن يومًا

من هواياته. أخبرها ببرودٍ أنه سيلتحق بكلية الآداب في القاهرة، وأنه سيتذكّرها في جواباته وزياراته. ابتسمت، اصطنعت اللامبالاة، تمنّت له التوفيق، لوّحت له من الشرفة يوم سفره، وقبل أن تستفيق من صدمتها، ماتت أختها عزة.

كانت ليلى تغير منها بسبب حُب جميل الزائد لها، إنصافه لعزة عند حدوث أي مشكلة، وطبطبته عليها حتى عندما ترتكب الأخطاء. لم تفهم سبب تلك المعاملة المُميزة إلّا عندما قرأت عن مُتلازمة داون بالصُدفة في أحد الكتب. امتلأ قلبها حبًا لعزة، صارت تُفضلها على الناس كافة، وتحاول إسعادها بكل الطرق فتشتري لها ما تُحبه، وتسمح لها بارتداء ما تُريده من فساتينها.

- ليلى... ضفيرة ... ضفيرة لعزة ...

انتهى جميل من تحميمها فوقفت عزّة بشعرها المبلول أمام ليلى الغارقة في بئرٍ سقطت فيها ولم تجد يدًا تنتشلها منها.

- ليس الآن يا عزة، غدًا سأعمل لك ضفيرة.

أخذت تُهلل وتقفز.

- ضفيرة ليلى ... ضفيرة لعزة ... جميل سيزعل منك ...

انصاعت ليلى لرغبة أختها فجلست فوق السرير وأجلستها على الأرض ثم بدأت تُضفر شعرها وهي تفكر في كل شيء؛ في مصطفى، في مستقبلها، وفي كلية التجارة التي التحقت بها ولم تذهب للجامعة منذ بداية الدراسة. انتهت من التضفير فوقفت عزة، نظرت للمرآة، أخذت تضحك في سعادة، ثم اقتربت من ليلى وقبّلت خدّها قبل أن تخلد للنوم بلا رجعة.

لم تُدرك ليلى أن ضفيرةً كلّفتها خمس دقائق قد أنقذتها من شعورٍ بالذنب كان سيطاردها للأبد، لم تفهم أن ما يُهوّن علينا آلام الفراق هو أن نقترب بإرادتنا قبل أن نُجبَر على الوداع.

لم يأت مصطفى ليعزيها، ولم تنتظِر مجيئه. كانت أمه كإخطبوط يعمل بعشرين ذراعًا؛ تطبخ طعام الغداء للضيوف، تصنع القهوة والشاي بلا توقُّف، تُواسي جميل، تُحاول إطعام ليلى، وتُبرر غياب مصطفى بكلماتٍ تنطقها ولا تُصدقها.

لاحظت ليلى اهتمامًا زائدًا من جارهم مراد. كان يجلس بجوار أبيها في العزاء لساعات، ينصرف أناس ويأتي غيرُهم، يختم الشيخ رُبعًا ويبدأ آخر، ومراد جالس في مكانه. يُهرع للبقال ليبتاع ما ينقصهم، يدخل بأقفاص من الخضار والفاكهة، ويُصبر جميل بالطبطبة، بالكلمات، وبالآيات القرآنية. في نفس اليوم الذي فتح فيه جميل محلّه بعد غياب، طلب منه مراد يد ابنتِه للزواج.

- أنا موافقة.

نظر لها جميل مطولًا ثم قال:

- الزواجُ ليس وسيلةً للهروب يا ليلى، أنت متعلمة وقارئة وتعرفين ذلك جيدًا.

قالت باندفاع:

- أنا موافقة ولكن بشرط، نأخُذ فترة خطوبة أتعرّف فيها عليه وأدرس شخصيته.

- هذا حقُّك يا حبيبتي ولكن، هل أنتِ متأكدة؟

نظرت لشرفة مصطفى المغلقة ثم قالت في ثقة:

- نعم، متأكّدة تمامًا.

أرادت ليلى أن تُثبت لنفسها أنها تخطت ماضيها، وتثبت لمصطفى أن حياتها لم تقف بعد رحيله. خُطبت في صمتٍ بحضور الأقارب والقليل من الجيران، قرأت الفاتحة على روح عزة قبل أن تُقرأ لتُعلن خطوبتهما، لم تأتِ أم مصطفى، لم تُبارك لجميل، ولم تُخاطب ليلى بعد هذا اليوم مجددًا.

راهنت ليلى نفسها بأن تلك الخطوبة ستُفسخ بعد أيامٍ قليلة، ولكن ما رأته من مراد دمّر كل توقُّعاتها. يومًا بعد يوم كانت تكتشف فيه المزيد من المزايا؛ ذكاءٌ يقترب من العبقرية، طيبة قلب نادرة الوجود، تعاملًا راقيًا مع الجميع، عقلًا مُتفتحًا بعيدًا عن الرجعية والعُقد، علمًا غزيرًا، ملامح تجمع بين الوسامة والرجولة، وقوة شخصية تفرِض وجودها في كل مكان. لم تُحبّه مثلما أحبّت مصطفى، ولكنها تعلقت بوجوده، وخاضت معه تجارب كانت تخوضها لأول مرة، تجارب زادتهم قربًا، وزادتها تعلقًا.

- أين تُحبين أن نجلس؟

أشارت بسبابتها ثم قالت:

- هناك... في منتصف القاعة.

في قاعة السينما هذه ضحكا، بكيا، ذُهِلا، صفَّقا، همسا، أمسك يدَها، قبَّل خدَّها، ووعدها بأن يكون لها صديقًا قبل أن يكون زوجًا. فتحت الصندوق الذي كانت تحتفظ بداخِله بتذاكر السينما، وعندما وجدته قد امتلأ عن آخِره، ابتسمت، وأدركت في تلك اللحظة أنها أحبَّت هذا الرجل.

- ازَّيك يا صباح.

ابتسمت ابنة بائع الذرة في خجلٍ فرد أبوها:

- ربنا يخليك لنا يا دكتور، ويخلِّي لك ست الكُل ويفرَّحكم ببعض.

أخذ يُقلب الذرة بيديه فوق الفحم المُشتعِل، سأله مراد:

- ألم يعُد محمد ابنك بعد؟

- لا والله ... لم يُرسِل جوابًا واحدًا منذ أن سافر ليبيا.

قالت ليلى بصوتها الناعم:

- ربنا يجيبه لكم بالسلامة.

مشيا فوق الرصيف الفوازي للبحر وهما يأكلان أكواز الذرة الساخنة. سألته ليلى عن سبب اختياره للطبِّ النفسي فقال:

- صدِّقيني ليس هناك مساكين في الدنيا مثل المرضى النفسيِّين.

التفت لها ثم قال في ثقة:

- ثم إنني بمشيئة الله سأصبح أكبر دكتور نفسي هنا، وسيأتي الناس لعيادتي من كل مُدن مصر وقُراها.

- وأنا معك حتى تُحقق كل هذا الحلم ...

نظر لها فاحمرّ وجهها خجلًا، قالت لتُغير الموضوع:

- هل قرأتَ رواية ثرثرة فوق النيل؟

أشار لطفلٍ يتبوّل في البحر ثم قال:

- لقد رأيت الثرثرة فوق النيل ولكني لم أقرأها.

ضحكت ليلى ثم راحت تحكي له قصة روايتها المفضلة، توقّفا عند فيلّا حديثة الإنشاء تطلُّ على حديقةٍ مليئة بالورود.

- ازيك يا عم صابر.

رفع العجوز يدَه لمراد ثم قال:

- الحمد لله يا بيه ... فضل ونعمة.

كانت الحديقة مُحاطةً بسورٍ خشبي قصير الطول، اقترب مراد من السور ثم صافح الجنايني وسأله:

- ألم تطرح الشجرة تُوتًا بعدُ يا عم صابر؟

- لا والله يا بيه ... لم يجن موعدُها بعد.

اقترب مراد من الجنايني ثم همس في أذنه بشيءٍ لم تسمعه ليلى، سار العجوز يتحسّس طريقه وسط الزروع، انحنى بصعوبةٍ ثم قطف وردةً حمراء اللون وأعطاها لمراد الذي التفت لليلى ثم قال وهو يمدُّ يدهِ بالوردة:

- هل تقبلين بي زوجًا لك يا ست البنات؟

أومأت ليلى برأسها موافقةً، وكانت شجرة التوت – رغم صِغر سنها – شاهدًا على قطف تلك الوردة.

سجين بين السطور

عزيزي الناشر،

تحية طيبة وبعد...

أعرف أنني فعلتُ كل شيء يمكن أن يُصيبك بالإحباط؛ اخترت موضوعًا غريبًا للرواية، تأخّرت عن موعد تسليمها بمقدار ثلاثة أعوام، وبدأت أرسل فصولًا متقطعةً لبريدك الإليكتروني المكتظ برسائل الكتّاب وأشباههم.

لن أكذب عليك، لم أكن بخير في الفترة الماضية. فرَد الاكتئاب أجنحته فوق رأسي فحجب عن أعيني الضوء، بدأتُ أتردّد على طبيبٍ نفسي، اعتدتُ على المُهدئات قبل النوم وبعده، عدتُ للترنّح بين الإيمان بأنني موهوب والاعتقاد بأنني موهوم، وصرتُ أمزق كل صفحة أكتبها فأمتلأ المكتب بقِطَع ورقٍ متناثرة تحمل حروفًا كُتب لها أن تُوأد قبل أن تُولَد.

لذلك قررتُ أن أرسل لك كل كلمةٍ أكتبها في رسائل لا تُعدّل ولا تُراجع.

لا أعرف إذا كانت الكتابة نعمةٌ رُزقتُ بها أم لعنةٌ أُصبتُ بها، الأمر أشبهُ بولادة يستمرُ فيها الطلْق لأشهر، ولادة تبدأ بأفكارٍ تُضاجع رأس صاحبها، وتنتهي بأطفالٍ لا يُشعرونه بالرّضا أبدًا. وكأنها مَركب لا تصل لمرساها ولا تغرق، تظل عائمةً بلا هُدَى، تتناقلها الأمواج، يتبدّل رُكّابها، وتصطدم بملايين الصخور دون أن تتحطّم.

لا أعرف لماذا أريد الآن أن أحدثك عن غرفتي، ولكني — كما أخبرتُك سابقًا — أكتب بلا تفكيرٍ ولا تعديل.

أسكن في شقة صغيرة فوق سطح عمارة أصابها ملح البحر بالتهابٍ رئوي، هذا أقصى ما استطعتُ الوصول له بعد أربعين عامًا من الكتابة (بصراحة، أدفع إيجار الشقة من مهنةٍ أخرى). لم تتحمّل زوجتي الحياة مع رجلٍ مُدمن لرائحة الورق فأخذت ابنتنا ورحلت. لم تعُد بعد ذلك الشقّة ضيقة، ففككتُ أطواق الكتب فانتشروا في كافة أركان الشقة واتخذوا من الأثاث — الذي كان مُحرمًا عليهم لمسه — مسكنًا لهم ولأوراقهم.

بجوار المكتب يمكنك أن ترى بوضوح تلك الحقيبة المتهالكة، المتآكلة، الممزقة، المهترئة، الحقيبة التي التصقت بظهري لأعوامٍ ولازمتني في كل رحلةٍ للقاهرة حيث اللقاء بناشرٍ، كاتب، ناقد، حضور ندوة، زيارة مقهى، تشمُّم فرصة، عرض ورقة، ثم نعود معًا في سيارة أجرة هتك الطريق عرضَها، أجلس بجوار الشبّاك برأسٍ سارحٍ وقلبٍ يحلم بيوم تقرأ فيه كلماتي المدفونة في الحقيبة، أحقق فيه هدفًا من قائمة الأحلام الطويلة، وأترك فيه أثرًا يستحقُّ كل هذا العناء.

لا زلت أتذكّر وقوف ابنتي خلف باب المكتب المغلق، ألمح ظلّها عبر الزجاج فأخبرها بأنني مشغول، تشبُّ بصعوبة ثم تفتح الباب بلا استئذان، تركض، تصعد فوق الأريكة ثم تقفز منها للمكتب المزدحم بالأوراق والأقلام، تُمسك قلمًا ثم تبدأ في صناعة دوائر عشوائية فوق مشاريعي الروائية، أتعصب، أغضب، أحملها بسرعة ثم أخرجها من المكتب قبل أن أغلق بابه مجددًا، أستسمح ماكينات الخيال بأن تعود للدوران، أراها تقف خلف الباب فأعرف أنها تُعد خطة جديدة للاقتحام، أعود لعوالم مثالية رسمتُها بإحكام، حيوات عديدة عشتُها بتلذُّذ، ولأبطال اندمجتُ في رواياتهم بعدما تأكدتُ أنني لست بطلًا في روايتي الشخصية.

أربعون عامًا من الحلم استفقتُ منها بأيدٍ خاوية، أربعون عامًا خضتُ فيها معارك ضد كلِّ شيءٍ في الدنيا، حاربتُ الأفكار، الأقلام، الورق، المصابيح، الصمت، أبواق السيارات، صخب الجيران، ضوء الشمس المتسلل، أصوات الرياح، رذاذ المطر، الصُداع، آلام الظهر، حصوات الكُلى، الاكتئاب، الجنون، شرائط المسكّنات الفارغة، أم كلثوم، الثلاجة الخاوية، برّاد الشاي، كل كلمة كتبتُها، وكل شخصٍ سأل، نظر، سخِر، نقد، رفض، اقترب، أو ابتعد.

كنتُ – قبل أيام – في عيادة طبيب نفسي تبعد عن هنا بأميال، تمددتُ فوق الشزلونج، وحكيتُ ما لم تتسع له دفاتري أبدًا. قال لي نوح – الطبيب الشاب – أن الحياة دوائر، أن ما بداخل دوائرنا تتحدد به مصائرنا، وأن الإنسان يظن نفسه مُحصنًا ضد السقوط ولا يُدرك أن عقله بيت لا تُغلق شبابيكه يقع في منتصف حقل ضباع لا تشبع ولا تنام.

كانت ملامح نوح تُذكرني بشخصٍ اعتدت أن أحكي له كل شيء، رأيته جالسًا خلف مكتب عيادته فانفجرت ماسورة الكلمات التي طال انسدادها، تحدثتُ

كمجنون حان موعد نوبته، واستمع كمحترف اعتاد حديث المجانين. قلت له إنني أشعر أحيانًا أن كافّة الأحداث التي يمرّ بها الإنسان تحدث في وقتٍ واحد، تُكتب في سطر واحد يتسع لكافة تفاصيل الرحلة، سطر يُمحى فور أن تُقلب الصفحة، ويُنسى وكأنه لم يُكتب أبدًا. قلت له إنني جزء من روايته، وأنه بطل في قصتي، إنني رأيته عندما كان عجوزًا، ورآني عندما كنتُ طفلًا. قلتُ له إن سطور الصفحات قضبان قضيتُ خلفها حُكمًا بالسجن المؤبد، وأن هناك أمواتًا يسيرون على أقدامهم خارج أسوار المقابر، يسكنون معنا، يجلسون بجوارنا حول المناضد، ويظهرون في صُورنا بابتساماتٍ تجعلنا نتوهّم بأنهم على قيد الحياة.

الفصل الثاني

دفتر الهلاوس

١:٤٦ صباحًا

أجلس فوق سرير مصنوع من جلد أسود يتوسط خشبة مسرح مكتظ بالناس.

ألمح بين الحاضرين وجوهًا مألوفةً كوجهِ أبي، أمي، زوجتي، أقارب لقاءاتهم نادرة، جيران علاقتهم سطحية، زملاء ابتساماتهم مُزيفة، وأصدقاء مراكبهم متفرّقة.

أشعر بصداعٍ يكاد يفتك برأسي، بشيءٍ لامرئي يضغط فوق صدري، وبأظافر حادّة تخدش عقلي من الداخل.

أحكي للناس، أصف، أشكو، أصرخ، أنادي، أستغيث، وأبكي.

يقولون إنني أصطنع، أتوهم، أتخيّل، أتدلّل، أمثّل، أبالغ، وأكذب.

ينصحونني بالهدوء، بالنوم، بالصلاة، بالتغافل، بالركض، بالصمت، بالدعاء، وبالادّعاء.

أنهض، أنحني، أفتح حقيبتي، أخرج قناع وجهٍ يبتسم، ألبسه، ألتفت لهم، يُصفقون حتى تتقطّع أيديهم، يختفي صوتي وسط التصفيق، وتنهمر دموعي خلف القناع.

-١-

استنساخ دُمية

لطالما كان المكتب الذي يتوسط غرفة مراد ونوح مزدحمًا بمقتنياتهم، مُكدسًا بكتُبهم، وأدراجه مُمتلئةٌ بأسرارهم.

فوق الحائط الذي يعلو المكتب عُلقت ذكرياتهم على هيئة صور لُصق بعضها بصمغ التخم مع الطلاء، ووُضع بعضها داخل براويز خشبية ثُبتت بمسامير صَدِئت مع دوران العقارب.

شوّهت إحدى الصور الحائط بعدما قشَرت دهانه لتنتزع خريتها وتسقط فوق المكتب. بعد محاولات غير ناجحة لإعادة صَلبها، وضعتها الأم تحت زجاج المكتب وسط زحام الصور التي راحت ضحايا للتمزُّق، للتلَف، وللتآكل.

في تلك الصورة، يقف مراد ونوح مُتجاوزين أمام شفرة تحمل زجاجات كوكاكولا، عُلَب عصير، أطباق حلوى، وأقنعة نينجا خضراء من النوع الذي يُثبَت في الرأس برباطٍ مطاطي. يضحك مراد في سعادة بينما يبدو نوح بائسًا ويائسًا؛ ينظر بعيدًا عن الكاميرا، ويحمل في يده دُمية على شكل مُهرج يبتسم في سعادة رغم أصابع نوح التي تقبض على رقبته القطنية.

في تلك الليلة، جاء الجدّ جميل يحمل الهدايا لأحفاده. كانت هدية مراد لوح شطرنج نُحتت قِطَعه يدويًا وصُنعت من خشبٍ فائق الجودة. فتح نوح هديته مُتشوّقًا ليجد مُهرجًا يبتسم له بسذاجة. رأى الجد جميل الحزن باديًا في عينيه فطلب من مراد أن يشارك نوح في اللعب بالشطرنج الجديد. هزّ مراد رأسه مُوافقًا، ولم يسمح لنوح أن يلمس هديته أبدًا.

عندما ضاعت قِطعة الملك البيضاء من رقعة الشطرنج واستبدلها مراد بقطعة بلاستيكية رخيصة كانت سعادة نوح لا تُوصَف.

مع الوقت، صار هذا المهرج صديق نوح المُقرّب، تحدث معه بِحُرية دون أن يتعزّق ظهره، نفث فيه غضبَه بكلِّ الطرق؛ لكمه، خنقه، صفعه، عضه، ولم تزُل ابتسامةُ الدُمية أبدًا.

طُرِد مراد من جنة أبيه بعدما فشل في نزع تفّاحة الطب من شجرة الثانوية العامة.

التحق بكلية التجارة، واقتصرت علاقته بأبيه على المصروف الشهري الذي قصقص أجنحته، قلّل أوراقه، وألصقه بعبارات استهزاء جعلت مراد يبحث عن عملٍ بجانب دراسته ليتخلّص من تلك المعاناة.

- بائع في محل كمبيوتر؟... رائع جدًا ... ما رأيك أن تُمسك فوطةً وتمسح سيارات الشارع؟

ظنّ نوح أن مراد سيتراجع عن فكرة العمل كبائعٍ ولكنه تفاجأ بتصميمه على هذه الوظيفة.

في الشهر التالي رفض مراد أن يأخذ مصروفًا من أبيه مُتحجّجًا بأن الراتب الذي يتقاضاه في مكتب الكمبيوتر يزيد عن حاجته. لم يُلح عليه الأب، لم يبدُ مهتمًا بالأمر، وكان نوح يعرف أن الراتب غير كافٍ وخاصةً بعدما رأى علبة السجائر التي كان مراد يُخبئها في دُرج مكتبه أسفل أكوامٍ من الأشياء.

أثبتت الأيام أن مهارات مراد لم تكن مُقتصرةً على لعب الشطرنج والركض وحفظ المعلومات. تعلّم كل ما يخصّ أجهزة الكمبيوتر حتى صار مُحترفًا في فكّها، تركيبها، تصليحها، وتجميع أجزائها. كان ينسخ أيضًا الألعاب والأفلام على أسطوانات يبيعها لكلّ من لديه كمبيوتر في وقتٍ كان امتلاكه مقتصرًا على الأغنياء وأشباههم.

رفض الأب شراء كمبيوتر لأولاده لأسبابٍ كان مقتنعًا بها، وكان حدثًا عظيمًا عندما نجح مراد في شرائه بدون مساعدة من أبيه. كان مُنهمكًا في تركيب الجهاز وتوصيل الأسلاك عندما جاء أبوه، وقف يتأمّل المشهد لبعض الوقت ثم أشار للمكتب وقال:

- لا تُضيّع وقتك في تلك التفاهة يا نوح... ركّز في مُذاكرتك وأنا سأشتري لك سيارةً جديدة لو دخلت كلية الطب.

تحوّلت نظرة نوح لأخيه من الغيرة للإعجاب. بدأ يرتدي قمصانًا مثله، يُكرر

كلماته، يُمشط شعره بنفس الطريقة، سرق سيجارةً من عُلبته، أشعلها بعود ثقاب سرقه من المطبخ، سحب نفسًا عميقًا، لم يسعل، لم يُعجبه مذاقها مثلما أعجب بشكله في المرآة وهو ينفُث الدخان من أنفه، كرر التجربة، زاد عدد الأنفاس، اعتاد المذاق، وأصبح مُدخنًا.

بعد أيامٍ من دخوله كلية الطب، صدق الأب في وعده، واشترى لنوح سيارة لانسر سوداء اللون. حُبست في جراج مُغلق، التحق نوح بمدرسةٍ لتعليم القيادة، حفظ النصائح والتعليمات، وسُمح له بقيادة سيارة أبيه الدايو حتى يعتاد الأمر ويتحسّن مستواه فيصبح جديرًا بقيادة السيارة الجديدة.

لم يكن نوح شغوفًا بدراسة الطب، كانت عيناه تفقد لمعتها فور عبوره لبوابة الكلية. لم يكن وحيدًا في قائمة فاقدي الشغف، سلك العديد من أصدقائه طرقًا لا تُناسبهم إرضاءً لآبائهم أو استسلامًا للظروف.

كان نادر– صديق نوح – موهوبًا في كرة القدم، قُبل في نادٍ لا يقبل أحدًا، غادر قطار الثانوية العامة المُزدحم، وركب سيارة النجوم الفائقة السرعة. بعد نصف عامٍ من التحاقه بالنادي الجديد، أُصيب في مباراة لُعبت في شارعٍ ضيق بقطع في أربطة الركبة. لم يكن مسموحًا له باللعب خارج أسوار ناديه، ولم تشفع له موهبته عند مُدرّبيه فطُرد بلا تردُّد.

فشل في إقناع أبيه بإجراء عملية جراحية لعلاج رُكبته، نجح بالكاد في الثانوية العامة ثم درس السياحة والفنادق في معهدٍ قريب من شارع الساعي الذي شهدت عماراته وأرصفته على أقدامٍ غُلفت بالذهب ثم تُركت لتصدأ.

التحق نادر بعشرات الوظائف، عمِل نادلًا، مُدير صالة، مسئولَ حسابات، مُوصِل طلبات، مُقشر بصل، مُساعد طباخ، فرّام لحوم، عجّان فطائر، بائع طعمية، والغريب أن الابتسامة لم تُفارق وجهه، لم تُفارقه وهو يتدرب في أفخم نوادي القاهرة، ولم تُفارقه وهو يقف خلف طاسة طعمية أمام عجوز يسبّه بأقذع الألفاظ ويمدّ قرطاسا ورقيًا لكي يملأه بأقراص الطعمية.

أرادت ماريا أن تلتحق بمعهد السينما، رفض أبوها بشدّة ثم قال موضحًا:

- لا نعرف أحدًا في القاهرة لكي يُوفر لك سكنًا، وبالتأكيد لن أسمح لك بالبقاء

وحدك هناك.

- سأسافر بالقطار كل يوم.

- أمك الله يرحمها ...

- لا تتحدث عن أمي.

دام صمتٌ خانق قطعته ماريا قائلةً:

- أمرٌ من ثلاثة سيحدث؛ أسيب لك البيت وأرحل، أموّت نفسي وأخلص، أو تتركني أدخل معهد السينما.

باع البقّال المجاور لسور شجرة التوت محلّه وشقته، أخذ عائلته وحقيبته، وابتلعته شوارع القاهرة التي لا تشبع.

نجحت زوجة الأستاذ حسن – موظف الضرائب الساكن في الدور الأخير – أن تُقنعه بشراء المحل والشقة. باعت ذهبها، فكّ وديعته، جمع تحويشته، اشتراهما، طلاهما، ثُم عرضهما للإيجار.

أخذ الشقة طبيب قلب غين في مستشفى المدينة وأراد أن يُوفر مسكنًا لعائلته، واستأجر المحلّ الأستاذ مينا، صاحب الأربعين عامًا، العائد لتوّه من إيطاليا بعدما عرف أن أمّه تآكلت ذاكرتُها بأنياب الزهايمر، وذهست صحتها أسفل قطار العمر.

افتتح الأستاذ مينا مطعم **(بيتزا روما)**، وضع فيه كل خبراته التي اكتسبها من خلال عمله في مطاعم إيطاليا، قدم لأهل المدينة شكلًا جديدًا من البيتزا التي كانت – بالنسبة لهم – قطعة فطير مُزينة ببقايا طعام الأمس. كانت أسعار المطعم مُرهقةً للقلوب، والقائمة مختلفةً عمّا ألفته العقول، ولذلك، كنتَ تجد المطعم هادئًا صبحًا وليلًا، والزبائن مُقتصرين على عشّاق الطعام الإيطالي من سكان المدينة الذين يُمكنك بسهولة أن تعدّهم على أصابع يديك.

بعد عدة أسابيع من القفز بين القطارات والركض خلف الأوتوبيسات، قرّرت ماريا أن تسكن مع زميلاتها في شقةٍ قريبة من المعهد لترتاح من عناء السفر اليومي ولتهرب من شبح أمّها الذي يُطاردها في كلّ ركنٍ من أركان شقتهم. كانت تعود لمدينة المحطة كلّ خميس في إجازة أسبوعية، وكانت المنضدة المُطلّة على

شجرة التوت في مطعم روما مقرًا للقائها بنوح.

- لماذا تمسكتِ بدخول معهد السينما؟

غرستِ الشوكة في قطعة زيتون سقطت في الطبق ثم وضعتها في فمها وقالت:

- لا أعرف يا نوح ...

أعادت الشوكة للطبق ثم قالت:

- أريد أن أبقى هنا من أجلك، وفي الوقت ذاتِه لم أغد قادرةً على الحياة في البيت ...

فتح نوح حقيبة ظهرِه التي كانت مُلقاةً بجوار المنضدة وأخرج منها الكاميرا الحمراء التي كانا يلعبان بها معًا في طفولتهما.

- هل تتذكّرينها؟

ضحكت ماريا فظهرت سنّها الأمامية المكسورة التي طلب منها نوح ألا تُصلحها. أمسكت الكاميرا، ألصقتها بعينيها، أخذت تُقلّب في الصور وتبتسم.

في عيد ميلاده، أهدته ماريا كاميرا كانون جديدة، في البداية كان يُصور أصحابه، جدّه، مراد أخاه، ثم بدأ يلتقط صورًا لمشاهد كان يرى فيها أشياءً تجذبه كمنظر أبٍ يسير بجوار طفله، بائعة ليمون ترشُّ ماءً أمام فرشتها، عائلة تخرج من بوابة محطة القطار، وعجوز يشرب المعسّل وحيدًا في المقهى. كان يطبع صورتين كل أسبوع في الاستوديو المواجِه للمحطة، يضعهما في الألبوم الضخم الذي اشتراه له الجد جميل، ولا يرى هذا الألبوم سوى ماريا في جلساتهم الأسبوعية التي تُعقد أمام أعيُن شجرة التوت.

منذ أن كان نوح طفلًا وهو يتحدث عن صداع شديد يؤلم رأسه. لم يستطيع أحد أن يجعله يصف هذا الصداع، طلَب منه الأطباء أن يُشاور على المنطقة التي تؤلمه، لم يُشر لرأسه أبدًا، كان يُشير لأذنيه.

رجّح أغلب الأطباء أنه يُقلد الكبار في حديثهم عن الصداع، أو أنه يتمارض للحصول على الاهتمام أو الغياب من المدرسة. في أحد الأيام كان يبيت عند جدّه

جميل وعندما انتهى البث في التلفاز أصدر صوت وشيش مُزعج فأشار نوح للتلفاز وصاح مُتحمسًا:

- الصداع يا جدُو ... هذا هو الصداع.

رفعت أمُه ملفَ شكواه لأبيه فتوقف نوح عن الشكوى تجنبًا لأسئلته الغزيرة، نظراته اللائمة، نبرته الحادة، ونصائحه التي لا يُغلّق صنبورها أبدًا.

اعتاد نوح هذا الطنين الذي يأتي بلا سببٍ ويرحل بدون علاج. وعندما تحوّل الطنين لأصواتٍ يتردد صداها في أذنه لم يعُد بإمكانه أن يتجاهلها.

كان يشعر فجأةً بصخبٍ مُزعج وكأن مائة شخص يجلسون خلف رأسه ويتحدثون في وقتٍ واحد. كانت الأصوات تبدأ خافتةً ثم تعلو تدريجيًا حتى تصل لمرحلةٍ يشعر فيها برأسه يُوشك على الانفجار. حكى لمراد أخيه الذي كان يستيقظ كل يوم ليجد نوح جالسًا على حافةِ سريره، يُغلق أذنيه بيديه، وتفيض عيناه بالدموع. كان مراد يقفز من سريره إذا رأى نوح مُستيقظًا، يُشعل له سيجارة من علبته، ويُحاولان معًا بكلّ الطرق أن يُسكتا تلك الأصوات.

حكى لأبيه ذات يومٍ فأخذه لمُستشفى خاص يُديره صديق له. سَحبت منه عيّنة دم ثم أُدخل في جهاز الرنين المغناطيسي. لم تكن ظلمة الجهاز والصوت المُزعج الذي يُصدره شيئًا بالمقارنة بصخب الأصوات التي تزور أذني نوح كل ليلة. أمسك طبيب المخ والأعصاب فيلم الأشعة، وضعه أمام لوحةٍ مضيئة ثم قال:

- المخ سليم ولا تُوجد أي مشاكل يا دكتور مراد.

لم يفهم نوح: هل كان يتوقّع أبوه أن يجد شخصًا جالسًا داخل رأسه أم جهاز راديو تُرك مفتوحًا!

- انظر لا أريد أن أسمعك تتكلّم عن موضوع الأصوات هذا مجددًا. أنت سليم والأشعة معك تؤكّد على ذلك.

ألقى أبوه ملفَ الأشعة فوق الشفرة ثم قال:

- لا تُوهم نفسك بأنك مريض.

انتظر نوح أن يُغادر أبوه المنزل ثم أعدّ كوبًا من الشاي الثقيل وخرج للشرفة حيث تجلس أمّه بصحبة الكاسيت ذي الباب المفقود. أخفضت أمّه صوت الكاسيت ثم سألته عن نتائج الفحوصات. طلب منها تفسيرًا لقسوةِ أبيه وعصبيته غير المبررة كلّما تحدّث عن الأصوات التي يسمعها.

- الموضوع له علاقة بـ ....

قاطعها بعصبية:

- بجدّي يونس وعمّي إسماعيل ... سمعتُ هذا الكلام ألف مرة ... وأعتقد أنني كبرتُ بما فيه الكفاية لكي أفهم.

- صدّقني يا نوح أنا شخصيًا لم أفهم هذا الموضوع كاملًا. كلّما كنت أسأل مراد عنه كان ينفعِل ويُغلق الحوار. كل ما أعرفه أن جدك يونس كان يتعامل مع الناس بطريقةٍ غريبة وكان مكروهًا بين أهل البلدة بسبب تلك التصرفات، وأنّ عمك إسماعيل كان يُحب الرسم، وكان هذا يُغضب جدتك هانم بشدة، ولم أقابل أيًا منهما لأنهما فارقا الدنيا قبل أن أخطب لمراد.

قال نوح وهو يُخرِج عود النعناع من الكوب:

- هل تعرفين كيف ماتا؟

سكتت قليلًا ثم قالت:

- جدُك يونس كان مريضًا، وكان مرضُه غريبًا، لم يجدوا علاجًا له عند الأطباء كافّة. لا أعرف كيف مات ولكن أعتقِد أنّ المرض فتك به وهو في سنٍّ صغيرة. أما عمُّك يونس فقد مات غرقًا في ترعة القرية.

- انتحر؟

نظرت له باستغرابٍ ثم قالت:

- من أين تأتي بتلك الأفكار؟ لا أعتقِد أن سُكان القرى كانوا يُفكرون هكذا في تلك الآونة. الغرق في الترعة نهاية شائعة بين الأطفال والشباب في الأرياف.

- هل تظنّين أن أحدهما كان يسمع أصواتًا مثلما أسمع ولذلك يتصرف أبي هكذا؟

نهضت أمُه من جلستها، اقتربت منه، قبّلت رأسه ثم راحت تمسح بيدها على ظهره.

- لا يا حبيبي... أنت كويس... مراد عصبي بسبب هموم العيادة ... كان الله في عونه.

كان يريد أن يُطبطب عليها، يُقبّل رأسها، يأخذها في حضنه ويتركها تبكي لتُخرج ما تدفنه بداخلها من كبت.

لم يكن الحائط الفاصل بين الغرفتين سميكًا بالدرجة الكافية لكي يمنع عبور الأصوات، ولم يكن صوت أبيه خافتًا لكي يمتنع عن عبور الحائط.

منذ طفولته وهو يسمعه يؤنّبها كلّ يوم، يؤنبها على ما فعلته، ما لم تفعله، يتذكر أنها كانت تردُّ، تُبرِّر، تفسر، تدافع، ثم صارت تفضل الصمت، تترك رياح كلماته تحطم نوافذ روحها كل ليلة، وعندما تهدأ، تنام. وفي الصباح ترتدي قناع الابتسامة وهي تُعِدُّ لهما شطائر المدرسة.

كانت الأصوات توقظ نوح من نومه، يفتح باب غرفته بهدوء، يدخل غرفة أمِّه سيرًا على أطراف أصابعه، يقف بجوارها ويُدقِّق النظر لصدرها ليتأكد أنها ما زالت تتنفَّس ثم يعود لغرفته مُطمئنًا على أمِّه التي صمدت يومًا جديدًا تحت قصف الرعد.

حطم نوح القاعدة الشهيرة التي تقول إن الشباب يفسدون بفعل أصدقاء السوء. بعدما مرَّن صدرَه على السجائر التي كان يسرقها من دُرج مراد أخيه، اشترى أول علبة لنفسه، وذهب لجمال راشد ليُخبره بأنه يريد أن يُجرب الحشيش.

لم يكن جمال من سكان مدينة المحطة، التحق بكلية الطب هناك بحكم مجموع درجاته، واشترى له أبوه شقةً فخمةً في بُرج حديث الإنشاء تطلُّ شرفتها على المستشفى الجامعي مباشرةً. ولأنه لم يكن معروفًا بين أهل المدينة، لم يكن مكترثًا بنظراتهم وهو يقطع الشوارع بسيارته المرسيدس وسيجارة الحشيش محشورة بين إصبعي يده المتدلّية من شبّاك السيارة المفتوح.

خدَّرت أنفاس الحشيش سكان عقل نوح فأخرست أصواتهم، رحل القلق الذي

احتل صدرَه لأعوام، تحول لشخصٍ متفائل، ضاحك، مبتهج، متسامح، ومحبوب بين الأصدقاء الذين فرّقتهم الاتجاهات المتباعدة ثم جمعتهم السجائر الملفوفة.

- من يتعاطَ الحشيش يا دكاترة لا يلمس الضرَرَ الناتج عنه، الكحول مثلًا يعرف الجميع أنه يُسبب تليُف الكبد وتدميره، السجائر مهما دافع عنها المدخنون يعلمون جيدًا أنها تُدمر الرئة وتُغلق شرايين القلب، مدمنو الهيروين والكوكايين يعرفون أنهم قد يموتون في أي لحظةٍ بجرعة زائدة، ولكن الحشيش قد تشربه عشرة أعوام ولا يحدُث لك شيء.

قال أحد زملاء نوح:

- إذًا، فلنشرب الحشيش جميعًا.

ضحك الجميع إلّا المحاضر الذي أتبع بجديّة:

- مشكلة الحشيش ليست في أضراره الجسدية ولكن في كوارثِه النفسية التي لا تظهر في نتائج التحاليل ولا تلتقطها سماعات الأطباء. الحشيش يُحطم الثقة بالنفس، يضع بذرة أمراضٍ نفسية وعقلية في أرض الدماغ، أمراض تزداد فروعها طولًا مع مرور السنين ويُصبح نزعها مُستحيلًا بعدما تجفُ التربة. يضع الحشيش غشاوة على عين المتعاطي فيجعله عاجزًا عن رؤية حقيقة الأشياء، المواقف، والأشخاص. يجعله عاجزًا عن الحُكم فيُبالغ في ردود أفعاله عندما يكون الأمر بسيطًا، ولا يُبدي اهتمامًا بالأشياء التي تستحقُ منه الاهتمام. وأكبر أضرار الحشيش – من وجهة نظري الشخصية – هو الوهم الذي يخلُقه في عقل المتعاطي، الوهم بأنه سيحقق كلّ أحلامه بسهولة، الوهم بأنه سيصبح شخصًا عظيمًا وهو جالس فوق الأريكة، الوهم بأنه سيتغيّر بدايةً من الأسبوع المقبل، الوهم بأنه ليس مُدمنًا، أنه سيُقلع عنه وقتما يريد، أن هموم الدنيا يُمكنها أن تتبخّر كدخان السجائر، وأنه بخيرٍ ما دام يضحك.

عندما عادت الأصوات تدقُ أبواب رأس نوح كانت قد بدّلت ملامحها، لم تعُد ترتدي عباءة الطنين وتُغمغم بكلماتٍ غير مفهومة، عادت بعدما نضجت وتحوّلت لصوتٍ يتحدثُ بوضوح، صَوت يُشبِهُ في نبرته صوتَ نوح، صوت يلوم، يذكر، يوقِظ، يؤلم، يسب، يَعيب، ويحقن القلق في قلبه كعقربٍ سام.

لم يشأ الصوت الغائب منذ مدةٍ أن يطرق باب نوح بأيادٍ خاوية فجلب معه كيسًا مُمتلئًا بالهلاوس، فرّغه داخل جمجمة نوحٍ فتناثرت محتوياته كحلوى لزجة التصقت بسجادٍ من الصوف ولم يغد لنزعها سبيل.

- ومتى تأتيك هذه الهلاوس؟

سألته ماريا وهما جالسان في مطعم روما كعادتهما.

- تظهر في أي وقت؛ أثناء المحاضرات، وأنا في الشارع، وأنا مُتمدِّد على السرير، حتى وأنا أقود السيارة.

- هذا الموضوع خطير جدًا يا نوح.

سكتت تُفكر ثم قالت في تردُّد:

- هل فكرت أن تزور طبيبًا نفسيًا؟

- فكرتُ كثيرًا. ولكن كل الأطباء النفسيين هنا يعرفون أبي جيدًا، هم إما أصدقاؤه أو تلاميذه، وقد حكيت لكِ عن ردّةِ فِعله على هذا الموضوع من قبل.

رشف من كوب الماء ثم قال:

- أفكر في الذهاب لطبيبٍ نفسي في القاهرة.

- فكرة مُمتازة. وأنا يُمكنني أن أبحث عن أفضل الأطباء وأحجز لك موعدًا.

فتح حقيبة ظهره، أخرج الكاميرا الكانون ثم قال وهو يُداعب أزرارها:

- موافق ولكن بشرط ...

رفع الكاميرا أمام وجهه وقال:

- ألتقط لك صورة جديدة.

ضحكت ماريا فظهرت سِنّتها المكسورة. نهض نوح ثم جلس على رُكبة واحدة والتقط صورةً لماريا بعدما عدل وضعية جلوسه أكثر من مرةٍ لكي تظهر شجرة التوت في الخلفية. عاد لمقعده وهو يتأمَّل الصورة في سعادة. انتفضت ماريا كمن لدغها ثعبان ثم قالت مُتحمسةً:

- لماذا لا تصف تلك الهلاوس والأحلام على الورق؟

- هل ستصنعين منها فيلمًا؟

لكمتْهُ في كتفِه برفقٍ ثم قالت بنفس الحماس:

- لا أمزح، الكتابة قد تكون حلًا مفيدًا، ثم إننا لن نخسر شيئًا.

أمسك دفترها الصغير ثم قال:

- إذًا، سيُصبح هذا الدفتر هو دفتر الهلاوس.

حاولَتْ أن تنزعه ولكنه قبض عليه بقوة.

- ليس هذا الدفتر يا نوح، به شخبطة وأفكار وشُغل مجانين، سأشتري لك دفترًا جديدًا المرة القادمة.

- شُغل مجانين؟ لقد جئتِ للشخص المناسِب. ثم إنك قد تجدينني المرة القادمة محجوزًا في مصحة.

أبعدت يدَها عن الدفتر ثم قالت:

- لا أحب هذا المزاح يا نوح، ربنا يخليك ليا.

استدركت:

- أعطِني هذا القلَم، إنه قلم رديء وقد عضضْته ألف مرة.

فُتح باب المطعم ثم دخل الدكتور مراد ببذلته السوداء وعطره المميز. سقط الدفتر من يد نوح وتدحرج منه القلم قبل أن يتوقف عند حافة المنضدة. التفتت ماريا وهي تتساءل عمّن ضعق نوحٍ لرؤيته. كانت علاقتها بوالده مُقتصرةً على السلام البارد والنظرات الغريبة التي اعتادت عليها عندما كانا يلتقيان صدفةً في الشارع. لم تزَ منه شيئًا سيئًا ولا جيدًا، ولكنها كانت تعرف عنه الكثير من حكايات نوح.

- تسمحوا لي أن أنضمّ إليكم؟

سحب الكرسي قبل أن يردّ أيٌ منهما ثم جلس وأشار للنادل الذي جاء مُسرعًا.

- قهوة بُن غامق سادة.

- آسف جدًا، لا تُوجد قهوة تركي هنا.

أعطاه نظرةً مُخيفةً من التي اعتاد عليها نوح ثم قال:

- اشترِ قهوة تركي واصنع لي فنجانًا بدون شكٍ وبسرعة لو سمحت.

انصرف النادل الذي لم يعرف ماذا يفعل.

- كيف حالك يا ماريا؟ وكيف حال أبيك؟

بذلت مجهودًا كبيرًا لتُبقي ابتسامتها على وجهها.

- الحمد لله، نحن بخير. كيف حال حضرتك وطنط ليلى؟

- بخير يا حبيبتي، كلُّك ذوق.

لم يلتفت لنوح، وكأنه غير موجود. أخرج محفظته من جيب الجاكيت الداخلي، مدَّ يدَه بداخلها ثم أخرج كارتًا أبيض اللون، وضع الكارت فوق المنضدة، دفعه بإصبعه حتى استقرَّ أمام ماريا.

- هذا الكارت هو نسخة مصغرة للافتة التي أضعها على باب عيادتي، هل تعرفين ماذا فعلتُ حتى تمتلئ هذه اللافتة؟

قطبت ماريا حاجبيها ثم نظرت لنوح الذي عادت له — في تلك اللحظة — الأصوات كما كانت تزوره قديمًا، على شكل طنينٍ مؤلم أخذت حدّته تعلو ثم تبدلت بصمتٍ غريب، صمت كان يبدو وكأنَّ أحدهم نزع فيشة أذنيه من لوحة الكهرباء. كان يرى أفواههما تتحرك، ملامحهما تتبدّل، أصابع أبيه تنقر على المنضدة، وأعين ماريا تزداد احمرارًا. لم يعرف كم من الوقت بقِي هكذا، فاقدًا للسمع، ولكنه عاد للحياة فجأةً على صوت أبيه يقول:

- كما أخبرتُك، نوح دكتور، وسيتزوّج في النهاية من دكتورة مثله، ومهما طالت مدة علاقتكما هذه ستظلُّ مجرد تجربة محكوم عليها بالفشل قبل بدايتها، وأنا أعرفك جيدًا وأعرف أنك لستِ من النوع الذي يُضيّع وقته في علاقاتٍ فاشلة.

لم تغد جفونها قادرةً على حجب الدموع المُتراكمة وراءها. نظرت لنوح فوجدته

صامتًا كتلفازٍ مغلق، جامدًا ككرسي مُثبت في الأرض، وهشًا كريشةٍ معتادة على الاستسلام للهواء. حملت حقيبتها المفتوحة وكرامتها المذبوحة ورحلت. جاء النادل يحمل صينيةً فوقها فنجان القهوة. وضعه فوق المنضدة ثم انصرف. أمسك الأب الفنجان بإصبعين ثم دفع مُحتوياته لفمه مرةً واحدةً. قال شيئًا لنوح ولكنه لم يسمعه ثم قام وعدّل ملابسه قبل أن يخرج من المطعم.

كان الجد جميل يلعب مباراة شطرنج مع مراد عندما فتح نوح درج المكتب ودسّ يدَه ثم أخرج قطعة الملك البيضاء التي اختفت قبل أن تتسع دوائر الأخوين. ضحك مراد، قَطَع نوح بلحةً لجدّه وأخرج منها النوى، تناولها الجد ثم رفع صوت الراديو دون أن يعلم أنها آخر مرةٍ سيسمع فيها صوت أسمهان.

لكي تكتمل الدائرة لا بد أن يعود القلم لنقطة الانطلاق.

غُلّف الجسد بالأبيض، فُتح القبر فمه مُجددًا، حمل نوح النعش مرةً أخرى، وعاد الألم لكتفه من جديد.

المكتب الذي يتوسط غرفة مراد ونوح مزدحم بأشياء لا علاقة لأيٍّ منها بالآخر، كمبيوتر مُغطّى بالتراب، علبة بداخلها سيجارتان وقطعة حشيش صغيرة، كاميرا كانون لم تفتح عينيها منذ أعوام، دفتر بنفسجي مُزدحم بالهلاوس، قلم أزرق مُتآكل الغطاء، شهادة تخرّج من كلية الطب، صورة لطفلَين أمام زجاجات كوكاكولا، ودُمية على شكل مُهرج لم تتحرك، لم تهرب، ولم تزَلِ ابتسامتها أبدًا.

حتى تمتلئ اللافتة

أدارت الطبيبة شاشة الحاسوب نحو ماريا ثم سألتها:

- ما قصة هذه الصورة التي تُعيدين نشرها على صفحتك كل بضعة أيام؟

ألقت ماريا نظرةً سريعة على الشاشة ثم قالت:

- مشروع فيلم فاشل.

كانت الصورة لعمارة من ستة طوابق تبرز من شرفاتها لافتات لعيادات أطباء مختلفين في التخصُّصات. سألتها نادين:

- فيلم عن الأطباء؟

- لا ...

قالت وهي تفتح حقيبتها:

- فيلم عن اللافتات.

أخرجت جهاز التدخين الإليكتروني ثم قالت:

- هل تعرفين ماذا فعل كل طبيب منهم حتى تمتلئ لافتة عيادته هكذا؟

- من الطبيعي أن يعرف كل شخصٍ ينوي دخول مجال الطب حجم المعاناة النفسية والجسدية والضغط العصبي الذي سيعيشه طوال سنوات الدراسة وبعد التخرج ...

قاطعتها ماريا:

- ليس هذا ما يحدث للأسف لأن أغلب الملتحقين بكليات الطب يدخلونها لأسبابٍ بعيدة عن حُبهم للمجال نفسه كإرضاء الأهل، اتباع النصائح، الحصول على لقب «دكتور»، تحقيق مجموع مُرتفع في الثانوية العامة، أو تقليد لأصدقاء، أطباء معروفين، أو حتى أبطال مسلسلات تُظهر جزءًا من حياة الطبيب وتُخفي معظم

التفاصيل.

- ليس الطبيب وحده من يُعاني ... من أجل لقمة العيش، يكافح الجميع.

أشارت ماريا للشاشة ثم قالت:

- انظري هنا يا نادين.

اقتربت الطبيبة برأسها لتتبيّن ما أرادتها ماريا أن تراه.

- اقرئي أسماء هؤلاء الأطباء لو سمحت.

دقّقت نادين النظر ثم بدأت تقرأ:

- دكتور سعيد جمال فرحات، دكتور أحمد سعيد جمال فرحات، دكتورة منال سعيد جمال فرحات، دكتور ....

قاطعتها:

- ما رأيك؟ ... هل تظنّين أن هذا الطبيب ترك لأولاده حرية الاختيار؟

سكتت نادين قليلًا ثم قالت:

- كل الاحتمالات قائمة ...

- معك حق، كل الاحتمالات قائمة ... ربما أحبّوا أبوهم فتعلقوا بسمّاعته ومعطفه ... ربما أرادوا أن يُرضوه فدخلوا عالَمه بإرادتهم ... ربما أكد لهم أن هذا هو طريق النجاح الوحيد ... ربما ألزمهم بالسّير فيه ... وربما كان لكلٍّ منهم شغف في الحياة وجد فيه نفسه ثم ابتعد عنه بإرادته أو مغصوبًا ... شغف يتذكّره من حينٍ لآخر وهو جالس مع نفسه فيضحك ساخرًا، أو يتحسّر على اختياره.

سحبت نفسًا من جهاز التدخين الإلكتروني ثم قالت:

- وبالتأكيد يجب على الطبيب أن يتزوج من طبيبةٍ لكي يتمكّنا معًا من تربية أطفال مؤهلين لأن يُصبحوا أطباء مثلهم ... لماذا لا نُقسّم أنفسنا لقبائل حسب مؤهلاتنا ووظائفنا ونمنع الاختلاط بين أبناء كل قبيلة والقبائل الأخرى؟

ضحكت بسخرية ثم أتبعت:

- يمكننا أن نجمع الأطباء معًا ونسميهم قبيلة المعطف ... ونضم المهندسين في مكانٍ واحد ونسميهم قبيلة المسطرة ... سأجمع زملائي في المعهد ونطلق على أنفسنا قبيلة الكاميرا ... أليست هذه طريقة رائعة لتعليم الأجيال الجديدة أن الزواج لا علاقة له بالحب والمودة ولكن بالشهادات والتخصصات؟

نهضت الطبيبة ثم قالت وهي تسير نحو الثلاجة:

- لن أعارضك يا ماريا، يؤمن أغلب الآباء هنا بأن توريث الاتجاهات والوظائف يصبُّ في مصلحة أولادهم، يضمن لهم مستقبلًا مُجربًا مُسبقًا، ويُريحهم من مشقة السير في طرقٍ غير مُمهّدة.

- دعينا نتحدث بصراحة يا دكتورة نادين ... ينسخ الآباء أنفسهم في أولادهم، يُحولونهم لنسخٍ مكررة، غير أصلية، مُتشابهة، إعادة لفيلم قديم ذيع وشُوهد وحُفظ ... يتعاملون مع أولادهم وكأنهم يخوضون مغامرةً في لعبة كمبيوتر، وكلّما زاد عددُ الأطفال؛ زادت فُرَص عبور المطبّات، والوصول لمراحل مُتقدمة في اللعبة ... يظنّون أنهم إذا ساعدوهم على الوصول لمكتبٍ فخم، معطف أبيض، مسطرة طويلة، بذلة أنيقة، فإنهم بذلك يضمنون لهم السعادة والاستقرار، وأن أولادهم سيجدون شغفهم في نفس الصناديق التي وجد فيها الآباء أنفسهم.

قالت الطبيبة وهي تفتح زجاجة عصير:

- أنا مؤمنة بأننا نُولَد بشغفٍ مُحدد مسبقًا، وأن مُهمتنا الشاقة في الحياة هي محاولة الوصول لهذا الشغف، والتعرف على أنفسنا الحقيقية... ومؤمنة أيضًا بأن الآباء يحاولون مساعدة أولادهم بكل الطرق المُمكنة، ولا يُدركون أنهم بالمُبالغة في الاهتمام والتوجيه يكبلون إرادة أولادهم ويسرقون منهم حُريتهم ... الأمر يُشبه الأم التي أشعلت المدفأة في صالة البيت فخنقت أطفالَها ... أرادت أن تحميهم من البرد ولم تُفكر في أنها بحمايتها الزائدة تقتلهم.

عادت للمكتب، جلست ثم أتبعت:

- الإنسان إذا لم يختر طريقه بنفسه، سيراه معتمًا كئيبًا حتى لو اصطفت المصابيح على جانبيه.

قلبت نادين في صفحات دفترها ثم قالت:

- هل كان زوجك طبيبًا؟

- لا ... رامي كان مهندسًا ... تعرفتُ عليه بعدما تخرجت من المعهد مباشرةً ... خرجنا مرتين معًا وعرض عليّ الزواج في المرة الثالثة ... وافقتُ بدون تردُّد ... وتزوّجنا بعد شهرين تقريبًا.

- بدافع الحب؟

- إطلاقًا ... لم أحب رامي ... ولا أعتقد أنه أحبني أيضًا.

- ولماذا قبلتِ إذًا؟

نهضت ماريا ثم بدأت تمشي في الغرفة وهي تحكي.

- كان انتهاء الدراسة في المعهد معناه عودتي لبيت أبي. فكرة الرجوع لهذا البيت كانت كابوسًا مُزعجًا. الزواج كان الحلّ الوحيد للتخلص من هذا الكابوس. كما أنني لم أمتلك شيئًا لأخشره، ماتت أمي، تركني نوح، وانطلق زملائي كلٌّ منهم في اتجاهٍ بعد التخرّج.

توقفت عن الحكي بضع ثوانٍ ثم أكملت:

- كان رامي إنسانًا رائعًا، تقاطعت دوائر أفكارنا فزادتنا قربًا، أخبرتُه أنني أكره الزواج التقليدي بكافَّة تفاصيله، وافقني الرأي، ربما كان مُقتنعًا، وربما أراد إرضائي. تزوّجنا في مدينة دهب، حفل بسيط أمام البحر، ارتديتُ فستانًا أزرق اللون، وارتدى قميصًا مفتوح الصدر. قضّينا شهرًا هناك ثم عُدنا للقاهرة حيث استأجر لنا رامي شقةً صغيرةً، وهناك بدأت أضواء الشموع تخفُت تدريجيًا.

فتحت زجاجة المياه، رشفت منها ثم أتبعت:

- ورث رامي الهندسة عن أبيه ولم يجد نفسه فيها. كان يتنقّل بين الشركات وكأنها مقاعد خشبية يبحث بينها عن شزلونج كهذا يُريح ظهره. كنتُ أعرف أنه يُدخن الحشيش ولكني لم أتخيل أنه لا يفعل شيئًا آخر في حياته؛ يشرب في البيت، في السيارة، يسهر مع أصدقائه طوال الليل، ثم يعود قبل الفجر ليبحث عن

جسدٍ يفرغ فيه شهوته وينام.

ضحكت في حسرة ثم قالت:

- كان قد ورث مبلغًا محترمًا، وضعه في البنك وعاش على أرباحه الشهرية. ولأن راتب البنك كان كبيرًا، لم يكن في حاجةٍ لارتداء خوذة الهندسة والوقوف تحت شمس الظهيرة كل يوم.

سألتها الطبيبة:

- تطلّقتما بسبب الحشيش؟

- لا ... بسبب اقتراحه للإجهاض عندما عرف أنّني حامل ... قال إنه ليس مستعدًا لأن يحمل مسئولية طفل ... قال إن هذا العالم لا يستحق أن نجلب فيه طفلًا يُعاني ويبكي ويتألّم ... لم يكن هذا هو السبب الوحيد أيضًا ... كان الملَلُ هو الدافع الأكبر ... خرجَتْ مشاعرنا من الفرن الساخن مباشرةً للفريزر ... اتسعت دائرة الخلافات ... وعندما أحسستُ بأن بيتنا صار يُشبه بيتنا القديم في مدينة المحطة، طلبتُ الطلاق.

- ألا تعتقدين أن الزواج يستحقُّ المزيد من الصبر وخصوصًا لو كان هناك طفل قادم؟

- كما أخبرتك من قبل، أنا لم أتجاوز طفولتي أبدًا ... ظلت تنقر جدران رأسي لتذكّرني بكل يومٍ عانيتُ فيه بسبب خلافات أبي وأمي... لم أكن مستعدةً لتكرار هذه التجربة... منظر أمي وهي تُحارب الموت وحدَها لم يُفارق ذهني أبدًا.

- وهل ارتحتِ بعد طلاقك منه؟

تنهّدت بعمق ثم قالت:

- جاءت مايا للدنيا فتغير كلُّ شيء؛ صار لديّ سببٌ أبتسم من أجله، استيقظ رامي من غفلته، تعلّق بمايا كثيرًا، وطلب منّي أن أعود إليه.

- ولماذا رفضتِ؟

- ربما لأنني كنتُ خائفةً من القفز مجددًا في نفس الحفرة، ربما لأنني أكره فكرة

استمرار الزواج من أجل الأطفال، ربما لأنني كنت مرتاحة أكثر وأنا وحدي ...

سكتت قليلًا ثم قالت:

- وربما لأنني لم أتوقف يومًا عن التفكير في نوح.

مسحت دموعها قبل أن تُغادر عينيها ثم قالت ضاحكةً:

- هل تعرفين أنني رأيته مجددًا؟

شردت قليلًا ثم قالت:

- كان أبي يزورنا في القاهرة كل أسبوع تقريبًا، وبعدما أصيب بالقدم السكري أصبحت حركته محدودة ومشيه شاقًا فبدأتُ أزوره أنا ومايا في بيتنا القديم. كانت زيارتنا له لاتطول عن نصف ساعة يفرغ خلالها مخزون الكلمات، يحلُ صمت ثقيل، وتبدأ مايا في الشكوى من عدم وجود وسائل للترفيه. في ذلك اليوم كان أبي يلعب مع مايا بشطرنجه القديم، خرجت إلى الشرفة فوجدت نوح يهبط من سيارته، فتح الباب المُجاور له ونزل ابنه كريم، أمسك يده ثم مشيا معًا، وراقبتُهما حتى اختفيا.

نظرت للطبيبة ثم قالت:

- هل تعرفين ما هو أكثر شيءٍ كرهته في نوح؟

لم تنتظر منها ردًا لتجيب:

- ساعته ... تلك الساعة الأورينت الغبية ... منذ أن أهداها له أبوه لم يخلعها أبدًا ... لم أتخيل أنني بعد كل تلك الأعوام سأجده يرتديها ... ما هي الصعوبة في خلع ساعة يا دكتورة؟

رفعت قبضة يدها ثم خلعت ساعتها وألقت بها فوق المنضدة بعنف وأتبعت:

- كنتُ أكرَه فيه ضعفه، صمته، وقبوله لأوضاع لا يرضى بها إنسان عاقل ... ولكني في الآن ذاته كنتُ أشفق عليه، أنا الوحيدة التي تعرف حجم مُعاناته ... وكم كنتُ أحلم بيومٍ يكسر فيه القفص ويتحرّر منه حتى لو سيطير بعيدًا عني ... لكنه لم يتحرّر لا من القفص، ولا من تلك الساعة الغبية.

تكثفت الدموع في عينيها، غلبها الصمت، اتجهت نحو الشباك ثم أعطت الطبيبة ظهرها وأخذت تمسح عينيها بعصبية. قالت نادين لتغير الموضوع:

- تعالي هنا، أنت مخرجة أفلام، كيف أصبحت مصورة أفراح؟

- بسبب نادر، صانع الشطائر.

نظرت لها نادين في استغراب فضحكت ماريا وقالت:

- سأحكي لك.

عادت للسير في الغرفة من جديد.

- لم أكن مرتاحةً لفكرة دفع رامي لإيجار الشقة أو شرائه لطلبات البيت، ليس هذا ما أردتُه عندما طلبتُ الطلاق. تقدّمت للعمل في عددٍ كبير من محطات التليفزيون وشركات الإعلانات، واكتشفتُ أن أغلب المتقدمين لتلك الوظائف حاصلون على شهادات أجنبية أو لديهم سنوات خبرة في مجال الإخراج. اكتشفت أيضًا أن المكالمات التليفونية تعمل كجسرٍ يحمل التائهين لبر الأمان، وكان هاتفي المحمول خاليًا من أرقام صناع الجسور.

التفتت لنادين ثم قالت:

- بصراحة، ظهرت أمامي أكثر من فرصة للعمل ولكنها لم تكن على مقاس طموحاتي ... كنت أحلم ببلوغ قمة المجد بالمصعد وليس زحفًا فوق السلالم.

- وكيف انتقلتِ من البحث عن المجد لإخراج أفلام حفلات الزفاف؟

- بالصدفة ...

وقفت تُعد كوب شاي وهي تحكي.

- صنعتُ فيلمًا بسيطًا لكي يُعرض في حفل زفاف إحدى صديقاتي... في اليوم التالي للحفل، اتصل بي مصور أفراح واقترح أن نعمل معًا... رفضت... قلت له إنني لم أدرس في معهد السينما لأصنع أفلام زفاف... وبينما كنتُ في سيارة أجرة بمدينة المحطة رأيت نادر، صديق نوح، فطلبتُ من السائق أن يركن جانبًا، وجلستُ بضع دقائق أراقب ما يفعله.

صبت الماء الساخن في الكوب ثم أردفت:

- كان يصنع شطائر وقهوة في عربة قديمة حوّلها بطريقة ما لمطعم صغير ... مشروع يجعلك تشعرين أنه بلا قيمة، ثم تصطدمين بعددٍ هائل من الشباب متجمّعين حول تلك السيارة ... يجلس بعضهم فوق الرصيف، يستند بعضهم لسياراتهم، ويقف بعضهم أمام نادر، المنهمك فيما يفعله، والمبتسم في سعادة حقيقية وكأنه قد حقّق أكبر حلم تمنّاه في حياته.

حملَتْ كوب الشاي ثم قالت وهي تسير عائدةً للمكتب:

- في طريق عودتنا من مدينة المحطة اتّصلتُ بالمصور وأخبرته بأنني موافقة على العمل معه ... ظننتُ أنني قد أستطيع تحصيل مبلغٍ من هذه الوظيفة يُساعدني في رعاية مايا وشراء احتياجاتنا ... ووجدتُ نفسي بعد أشهرٍ قليلة أجلس في معرضٍ فخم مع مايا لنختار سيارتنا الجديدة ...

نظرت للطبيبة ثم قالت مبتسمةً:

- تذكّرتُ حينئذٍ اللوحة المعلقة في محل الجد جميل ... (هو عليّ هين).

ارتشفتْ من الكوب ثم قالت:

- اشتريتُ أحدث كاميرا، ابتكرتُ أساليب جديدة لصناعة أفلام الزفاف، ارتفع الطلبُ علينا حتى صار جدولنا ممتلئًا لنهاية العام، وحقّقنا مكاسب لم أحلم يومًا بالحصول على نصفها.

- وهل كنتِ سعيدة؟

سكتت ماريا قليلًا ثم قالت:

- كنتُ سعيدة بالربح، بالراحة المادية، بشراء ما تحتاجه مايا قبل أن تطلبه ... ولكني لم أكن سعيدةً بما أفعله، ليس لأنه سيئ أو قليل الشأن ولكن لأنه لا يتناسب مع ما أحلُم به ... ولكني كنتُ قد تعلمتُ من نادر – صانع الشطائر – أننا لا نعرف أبدًا أين يكمن الخير ... واكتشفتُ أيضًا أن أغلب المقبلين على الزواج لا يعرفون عنه شيئًا.

- لا أفهم ...

- نادرًا ما كنت أسمع شخصًا يتحدث عن الحب، التفاهم، الأسرة، المستقبل، الطموح، المشاركة، التقدير ... كل النقاشات كانت تدور حول أسعار الشقق، أناقة الفستان، قاعة الأفراح، القصور، مقاعد الضيوف، نوع التورتة، النجف، عدد جرامات الذهب، لون الحائط، ديكور الشقة، حجم التلفاز، عدد أطقم الأكواب، السجاجيد، الستائر، لون رابطة العنق، نوع بوكيه الورد، طراز سيارة الزفاف... أقصى ما وصلَت له مُحادثاتهم هو فندق شهر العسل... وكأنهم يعتقدون أننا في فيلم قديم سيُقبّل العريس عروسته ثم تُكتب كلمة النهاية ويعيشان معًا في سعادة أبدية.

ضغطت ماريا فوق لوحة مفاتيح الحاسوب فظهرت صورة عمارة الأطباء من جديد، أشارت للشاشة ثم قالت:

- اتّضح أن هناك لافتةً لكل شخص يريد أن يتزوج ... لافتة العريس تضم ماله، شقته، سيارته، ووظيفته ... ولافتة العروسة تضم شكلَها، جِسمها، سنّها، ومؤهلها ... تتآكل السنوات في صُنع لافتات جذابة... ولا يُنظَر للإنسان باحترام حتى تمتلئ لافتته.

-٣-

مسرح العرائس

اختارت ليلى اللون الأبيض كطلاءٍ للشقة ليكون بمثابة صفحة جديدة، انتقت قِطع الأثاث بعناية من أفخم محلات دمياط، أهدتهم السيدة هانم – أم مراد – تليفزيون جولد ستار ذا صورة مُلونة، وفاجأها جميل بكاسيت باناسونيك كانت تحلُم بامتلاكه.

كُتب الكتاب، زغردت النساء، انطلقت سيارة تحملهما للإسكندرية حيث قضت ليلى أسبوعًا كان بمثابة رحلةٍ للجنة. وعندما عادت السيارة وتوقفت أمام بورصة الساعي، لم تفهم ليلى أن موعد الهبوط للأرض كان قد حان.

أصيب مراد – فجأةً – بإمساكٍ في الكلام، كان مُهتمًا بكل الأشياء سواها؛ بالعيادة، بالتليفزيون، بقميصٍ يقوم بكيّه، بصرصار تسلَّل لغرفة النوم، بطبق أرز بالشعرية، بكتابٍ طبي يتصفَّحه، بجريدة تعود لليوم السابق، بفاتورة كهرباء، بجزمة يقوم بتلميعها، بأي شيءٍ سواها؛ وكأن حُبه لها قد جرح بعد فض بكارتها، نزف لأيام، ثم فرغت دماؤه، وأُصيب بجفافٍ شديد.

راحت ليلى تبحث عن خطأ ارتكبته، استعادت تفاصيل رحلة الإسكندرية، الكلمات التي نطقت بها، أطباق الطعام التي أعدتها، والملابس التي ارتدتها. كانت تلوم نفسها بلا سبب، وتبحث بلا جدوى. حاولت جاهدةً أن تُضمِد جرحًا لم تتسبب فيه، وبعد أيامٍ مرت ببطءٍ مُميت، جاءها الفرج على هيئة طفلٍ بدأ يتشكل بداخلها، طفل عرف مراد بوجوده فعاد مراد الذي تعرفه، التأم جرح المحبة فعاد يتحدث، يستمع، يشتري لها ما تشتهيه، يحكي لها تفاصيل يومه، يُساعدها في شئون البيت، ويبتسم في وجهها بعدما بدأت تشعر أن وجهها أصبح مُضادًا للسعادة.

- هل اخترتِ له اسمًا؟

نظر للصغير الملفوف بالبطانية والغائص بين ذراعيه ثم قال:

- سأسمّيه مراد ... مراد الساعي ...

بدت الفكرة غريبةً، ولكنها كانت تُريد إسعاده، وكانت في غاية الإرهاق بعدما

حشر رأس طفلها وفتك بها الوجع وهي تُحاول إقناعه بالخروج للدنيا.

امتلأت غرفة المستشفى بأقاربهم، وقفت السيدة هانم تتأمل حفيدها بملامح متجمدة، جلس جميل بجوار ابنته بجلبابه الفضفاض وسبحته الزرقاء، مسح بيده على رأسها فهجم النعاس على جفنيها. نظرت لمراد فوجدته يبتسم في سعادة، دعت الله أن تدوم، أغمضت عينيها، واستسلمت للنوم.

بعد ولادتها بعدة أيام، جاءت السيدة هانم لزيارتهم، أنزل القهوجي من العربة أقفاص فاكهة، لفافات فطير، زلعات مش وعسل أسود، وأكياس لحم تقطر منها الدماء. نزل السلالم يلهث بعدما أوصل حمولته، وجلست هانم فوق كرسي الصالون لتلتقط أنفاسها. وضعت الطفل في حِجرها ثم قالت وهي تفحصه:

- لماذا أنت هزيل هكذا يا صغيري؟ ... ألا تُرضعك أمك؟

فتح الحفيد جزءًا من شبّاك عينيه ثم أغلقه وعاد للنوم.

- اسمعي ... أكل المدينة هذا لا ينفع لإشباع طفلٍ رضيع ... لازم تاكلي فراخ ولحم وبطاطا وتمر وبيض ... تشربي حلبة ويانسون ... إياكِ والبقدونس ... ولا تشربي نعناع أبدًا ... فاهمة؟

- نعم.

لم تتمكن ليلى من السيطرة على اهتزاز قدمها فجلست فوق المقعد ثم راحت تقضم أظافرها بدون توقُّف. خرج مراد من غُرفتهما بأعيُنٍ ناعسة، هُرع للصالون، انحنى وقبل يدَ هانم التي قالت:

- أصبحت تستيقظ بعد الظهر وتزور أمَّك في الأعياد ؟ هل أنستك المدينة أصلك؟

- لا والله ما أقدر يا ستّ الكل، حقك على راسي.

قبّل مراد رأسها ثم جلس بجوارها في صمتٍ كطفلٍ مُعاقَب.

- نسخة من جده يونس.

دسّت الجدة يدَها في صدرها، أخرجت قطعةً من القماش ملفوفةً على شكل

مثلث، فكّت البطانية الملفوف بداخلها الطفل، وضعت القماشة على صدره ثم أعادت لف البطانية بإحكام وقالت:

- **هذا حجاب من يد سيدك خليل ...**

التفتت لليلى وأردفت:

- **تضعينه فوق صدر مراد طوال الوقت ... أما هذا ...**

أخرجت قطعة قماش مُشابهة ثم قالت:

- **تضعينه تحت مخدّتك، تحت رأسك مباشرةً، تنامين على جنبك الأيمن، تُرضعين ابنك من صدرك الأيمن، وترقيئ زوجك بالبخور فوزَ دخوله للبيت ... الست الشاطرة تعرف كيف تحفظ نفسها وبيتها من العين والحسد ... وربنا هو الحفيظ.**

أخذته ليلى بيدٍ مُرتعشة، نهضت الجدة ثم وضعت الطفل النائم فوق الأريكة، خرجت إلى الصالة فتبعها مراد كظلٍّ لا يُفارق صاحبه، استغرقت ليلى نصف دقيقة لتستوعب ما حدث قبل أن تلحق بها. وقفت هانم أمام المرآة تُحكِم إغلاق طرحتِها السوداء بدبوس مشبك.

- **لا والله ... لن تعودي للبلدة قبل الغداء ... لم نشبع منكِ بعدُ.**

قالت هانم وهي تنظر له في المرآة:

- **اشبع من زوجتك البرنسيسة.**

ضحكت باستهزاء ثم التفتت وأشارت للسفرة.

- **لا تترك الكتب في بيتك يا مراد ... لا تفتح أبواب الغمّ بيديك.**

غادرت بلا تحية، لحق بها مراد ركضًا، اكتشفت ليلى أنها كانت ما تزال تحمل هذا الحجاب بين أصابعها، ألقت به فوق السفرة ثم أمسكت بالكتاب الذي أشارت له السيدة هانم؛ كانت روايةً جديدةً لم تقرأ منها سوى بضع صفحات.

دفع مراد باب الشقة بقوة فارتطم بالحائط، استيقظ الصغير من نومه وبدأ يصرخ، ألقت ليلى الكتاب ثم هرعت اليه، حملته، ألقمته صدرَها فنسي حُزنه، وراح

يرضع بنهم.

- لماذا لا تُقدمي للسيدة التي سافرت لتزورك بعضًا من التقدير؟

- وماذا فعلتُ يا مراد لكي تتعصب هكذا؟

- لم تفعلي شيئًا، هذه هي المصيبة ... أنت لا تفعلين شيئًا.

سكت ثانيةً ثم قال:

- لا تُقبلين يدها، لا تتحدثين، لا تزدين ... أنت حتى لم تُكلفي نفسك بإعداد كوب شايٍ لسيدة مُسنّة جاءت من بلدةٍ بعيدة.

حبست ليلى دموعها وقالت بهدوءٍ بذلت جهدًا كبيرًا لتُحافظ عليه:

- والله يا مراد لم أقصد، أنت تعرف أنني لستُ معتادةً على تقبيل اليد وتبخير الشقة وموضوع الحجاب هذا ...

قاطعها:

- لو تعرفين ما الذي مرّت به هذه المرأة، ستقبلين أقدامها.

كان فضولها يلحُّ عليها لكي تسأله عما مرّت به، عما حدث لأبيه، لأخيه، عن طريقة نبش قبور أسراره، ولكنها كانت قد قرّرت أن تتوقّف عن طرح أي سؤال يخصُّ عائلته بعدما عُوقبت على أسئلتها بالغضب والتجاهُل.

- أنا آسفة، ومُستعدة أرضيك بأي طريقة.

قال بدون تردُّد:

- أريد منك أن تتوقّفي عن تضييع وقتك في قراءة الكتب.

استعادت صدرَها من فمِ صغيرها ثم قالت وهي تهزُّه برفق:

- منذ متى كانت قراءة الكتب تُضيع الوقت يا مراد؟

- منذ أن أصبحتِ أمًّا وصارت لديك مسئوليات تستحقُّ منكِ كل دقيقة في يومك.

أشار للطفل شبه النائم بإصبعه ثم قال:

- ضعي مراد قبل أي شخص تعرفينه، وتخلّي - من أجله - عن أي شيء يمكنه أن يقف بينك وبينه، أي شيء سواء كان كتابًا، جامعةً، تلفازًا ... لا يوجد في الدنيا ما هو أكثر أهميةً من ابنك.

لم تفهم ليلى كيف يُمكن أن تقف الكتب بينها وبين طفلها، ولكنها - إرضاءً لمراد - فعلت أشياء لم تكن في حسبانها؛ تخلّت عن دراستها، عن صديقاتها، واجهت سخرية أمّه بتقبيل يدها، تحمّلت أوامرها، كلامها المؤلم، وتدخُّلها في أكثر شئون حياتها خصوصية. جمعت رواياتها ووضعتها في صندوق التلفاز ثم ألقت به في أحد أركان الشرفة. ولم تعُد تذهب لمحلّ أبيها لأنه - كما قال مراد - لا يليق بزوجة الطبيب أن تبيع البسبوسة.

تحمّلت ليلى مُعاملة مراد الذي لم يعُد يرى في البيت إلا طفله، يتحدث معه بجدية وكأنه يفهم كلماته، يجلس - كل يوم - على طاولة الطعام في صمت، يُفرغ الأطباق التي تُمضي نصف يومها تُعدها بلا تعليقٍ ولا شكر، لا يمدح ولا يذم، لا يحكي ولا يسأل، تتحدّث فيهزُّ رأسه بلا استماع، وتسكت فيشيح بوجهه بلا رد.

أصبحت ليلى تُحدّث أثاث الشقة، تحكي للكنبة عن حلم راودها، تردُّ على أسئلة أبطال المسلسلات، تُعاتبهم، تذكّر قمصان النوم بأيامٍ كان مراد يرغب فيها، تطبطب على يد كرسي يحتضنها، وتسأل المصابيح عن موعد عودة الضوء.

كان انتقال أحلام وزوجها للسكن في الشارع المجاور بمثابة هدية أُرسلت لليلى من السماء. نشأت بينهما صداقة قوية في أيام قليلة. كانت أحلام تبحث عن شيءٍ ما طوال الوقت، بصلَة، جزرة، فص ثوم، ورقة فلفل أسمر، كيس ملح، جرائد قديمة، أستك شعر، مسحوق غسيل، كان زوجها موظفًا في شركة المياه، يُغادر مكتبه قبل انتهاء الدوام بساعة، يعود للبيت فيلتهم ما يجده من طعامٍ بلا استطعام، ويركض إلى بورصة الساعي حيث يلتصق بالمقعد حتى المساء.

كانت أحلام تفتح له الباب وتنتظر ما سيخرجه لها من قُبعة المشكلات التي لا تفرغ أبدًا، دائمًا هناك سببٌ كافٍ للتعازك؛ الطعام كان زائد ملح، ناقص لحم، محتاج خبز، البيت لم يُنظف، الشبابيك لم تُفتح، المصباح لم يُغلق، أحلام تبتسم

بلا داعٍ، تذكّر أسوأ صفاته، تلومه، تكشر في وجهه، تدعو على أهله، ولأنها سقطت من شجرةٍ أفرغ الخريف أوراقها، كانت ترضى بالسبّ، بالضرب، بالإهانة، وترى كل شيءٍ هيّنًا في سبيل ظلّ رجل، وحائط بيت.

تزوجت أحلام قبل خمسة أعوام من انتقالها لشارع الساعي، لم يكتب لها الله أن تُرزق بطفلٍ رغم تأكيد الأطباء أن رحِمها مُستعد وأن جسد زوجها سليم. كانت مؤمنةً بأن خلوّ البيت من الأطفال هو سبب تعكُّر مياهه؛ ولذلك جرّبت كل شيء، الأطباء، الأدوية، الأعشاب، الشيوخ، البخور، الحجاب، وعندما بلغ اليأس أشده؛ انفكّت عقدتها وزُرقت بماريا بعد خروج نوحٍ من رحم ليلى بسبعة أيام.

نظرت السيدة هانم لنوح - النائم في حِجرها - بحسرة، لم تُصدر تعليمات، ولم تُلقِ أوامر. أعادت الرضيع لأمّه ثم التفتت لمُراد الصغير الذي كان يُحاول فتح حقيبتها السوداء، انحنت فقبّلت رأسه ثم انصرفت.

تعامل الأب مع طفله الجديد وكأنه لعبة تُصدِر صوتًا مزعجًا، كان يبتعد عنه، يتجنّب حمله، ينظر إليه بطريقةٍ لم تجد لها ليلى تفسيرًا، يرفع مراد فوق كتفه ويسير به في الشقة ذهابًا وإيابًا، يُلاعبه، يُحدثه، يُعلمه، يأخذه معه في صلاة الجمعة، ولا يبتسم في وجه نوح الذي كان يحمل ملامح أمّه، ويفتقد محبّة أبيه.

هربت ليلى من تجاهُل زوجها بالسكن في غرفة أولادها، كان يدعوها للانضمام لفراشه في مواعيد يُحدّدها مُسبقًا، تدوم العلاقة لدقائق تشغر فيها برأسه سارحًا في مكانٍ بعيد، يُفرغ ماءه بداخلها ثم يُوليها ظهرَه وينام، تعود لأطفالها كمُغتصَبة لم تُعجِب خاطفها فحرَّرها، وتُمضي أيامها في تلبيةِ رغبات الجميع كخادمةٍ لا تأخذ قرشًا ولا تنال شكرًا.

نسي مراد - ذات يوم - أن يُغلق خزينته الصغيرة. تردّدت ليلى بين أخلاقٍ تمنعها وفضول يأكلها وفي النهاية، رجَحت كفة الفضول. لم تتفاجأ بوجود رزمة من الأوراق النقدية، لم يبخل مراد - رغم سوء مُعاملته - بماله أبدًا، وقد كانت تعرف أن عيادته قد ذاع صيتها بعدما اشتهر بعلاج أصعب حالات الاكتئاب والإدمان. وجدت أسفل رزمة النقود ورقةً مطويةً بإحكام، كانت قديمة، صفراء، لا تحتوي رسالةً هامة أو عقد بيع مُمتلكات، ولكن تضمُّ رسمةً لرجلٍ عاري الصدر ومُكبل بالأصفاد إلى الحائط. خلف النقود والورقة وجدت علبة دواءٍ لم ترَها من قبل، تفحّصتها،

فتحتها، أخرجت روشتها، كانت مكتوبةً بالإنجليزية بدون ترجمة، حفظت اسمها جيدًا ثم أعادتها وأغلقت الخزنة. كتبت اسم الدواء على ورقة نتيجة صغيرة ودستها في حقيبتها.

بعد أيامٍ من التفكير والتخطيط أخرجت تلك الورقة، رصّت أسفل اسم الدواء المجهول خمسة أسماءٍ لأدوية عشوائية تذكّرتها بصعوبة. تركت مراد عند جدّه جميل ثم حملت نوح في يدٍ وحقيبة السوق في اليد الأخرى، توغّلت في شوارع المدينة، أخذت تبتعد عن شارع الساعي حتى لم تغد تعرف أين تقف. دخلت صيدليةً لا تعرفها في عمارةٍ مزدحمة بلافتات الأطباء. مدّت يدها بالورقة للصيدلي وقالت:

- لو سمحت يا دكتور، نُريد أن نتبرّع بهذه الأدوية لجمعيةٍ خيرية ولا نعرف استخدامات كلّ دواء منهم.

نظر لها الصيدلي مُتململًا فقالت برجاء:

- هذا الدواء سيذهب لناس فقراء ... ولا أريد أن يُستخدَم بطريقةٍ خاطئة أو يضرُّ من سيأخذه ... وربنا يجازيك كل خير.

فتح الصيدلي الورقة ببطء، أمسك قلمه، قال وهو يكتب بخطٍّ مُتعرج ومُتعجل:

- هذا مسكن للآلام ... هذا علاج للمغص ... هذا ... دواء صرع تقريبًا ...

قاطعته:

- عن أي دواء تتحدّث؟

- لستُ متأكدًا ... ثانية واحدة ...

التفت لزميله الذي كان مشغولًا بكتابة شيءٍ ما في أحد الدفاتر، نطق اسم الدواء المُعقّد فردّ زميله دون أن يرفع رأسه من الدفتر:

- هذا دواء لعلاج أمراض نفسية ...

أمسك الصيدلي قلمه، نظر لورقة ليلى ثم قال مُستكملًا:

- هذا مُهدئ كحة وطارد بلغم ... هذا ...

قاطعته وهي تُطبطب على نوح الذي بدأ يبكي:

- لحظة يا دكتور ... دواء الأمراض النفسية هذا، ماذا يُعالج؟

رفع الجالس خلف مكتبه رأسه ثم قال ساخرًا:

- يُعالج أمراضًا نفسية يا مدام.

عادت ليلى للبيت برأس يوشك على الانفجار، خلعت عباءتها وارتمت فوق الأريكة، كان نوح يرضع من ثديها، مراد يلعب بحقيبتها، وهي تستعيد تقلبات زوجها المتكررة، مزاجه المتأرجح، نومه المضطرب، وتطرح خلف جدران رأسها ألف سؤالٍ وسؤال. ترددت بين الصمت والمواجهة، وسبقها زوجها بفتح الموضوع في مساء اليوم ذاته.

- هل فتشتِ في خزنتي؟

خُطفت بسنارة المفاجأة. ردّت في توتُّر بادٍ على صوتها:

- بالتأكيد لا ... لم أفتش في حاجاتك ... كانت مفتوحة ... ألقيتُ نظرة بداخلها ليس إلا ...

نظر لها مُتشككًا ثم قال:

- لم تكن نظرةً يا ليلى، لقد مددتِ يدكِ بداخلها ... صح؟

- صح ... ولكني لم أقصد بالتأكيد أن أبحث في الخزنة ... كل ما في الأمر أنني ... أنني ...

لم تجد كلمة مُناسبة فأطلقت رصاصتها:

- ما هذا الدواء الذي تُخفيه في الخزنة يا مراد؟

كانت تظنُّ أنه سيهتز، سيتوتر، سيضطرب، سيهرب، سيكذب، ولكنه ردَّ في ثقة بدون أي تردُّد:

- دواء مُضاد للذُهان نُعالج به مرضى الفصام.

لم تفهم ما هو الفصام، ولكن ردّه السريع زادها توترًا.

- و ... ولماذا تضعه في خزانتك؟

- لأنني أحضرته من العيادة بالخطأ ولم أتركه فوق المنضدة حتى لا يأخذه مراد ويتناوله بينما أنت ساهية عنه ومشغولة بالتفتيش في حاجاتي والتعدّي على خصوصيتي.

ألجمها الرد، اعتصرها الندم، اعتذرت، لم يتقبّل، واتسعت المسافة بينهما حتى صارا غريبين يسكنان بيتًا واحدًا، ومضت الأيام كقطارٍ لا يكترث بشئون ركّابه.

في بيت أبيها كانت تجد نفسها، تعود لنفسها، تقبل نفسها كما هي، وتتوقف عن لوم نفسها على كلّ شيء.

في بيت أبيها كانت تقرأ رواياتها دون أن يُحكّم عليها بالتقصير، تتمدّد فوق الأريكة، تمسح بيدها الجرامافون الضخم، العجوز، اللامع، تُثبت الإبرة فوق الأسطوانة وتنتظر صوت أسمهان، لم تعُد تراه قديمًا، مُملًا، ولكنه صار بالنسبة لها مُنظفًا لأتربة التفكير، ومُبيدًا لناموس القلق.

- لماذا يتقلّب الرجال كفصول العام؟

- الرجل في حالة حربٍ مستمرة، معاركه لا تنقطع، وأعداؤه لا يراهم سواه ... يُحارب الجوع، الفقر، اليأس، الرغبة في الاستسلام، الأحلام التي لا تتحقّق ولا تصمت، العائلة التي تنتظر منه المزيد من الحُب، من المجهود، من التحمُّل، من الصبر، من المال، ومن القوة.

لم يكن جميل يردّ على سؤال ابنته، كان يُحدث نفسه، يُصبرها، يُذكرها، يتخلص من أكداس الكلمات التي تحتشد في صدره.

- الشخص الذي تسمحين له بدخول حياتك قادم من طريق سفر لا تعرفين عنه شيئًا ... قطع مسافات، مرّ بتجارب، اصطدم بجدران، وخاض معارك ... كان إنسانًا لا يُشبه صورته الحالية قبل أن يعبر بلدان الآخرين، وسيُصبح إنسانًا مُختلفًا بعدما تتقاطع دائرتاكما ... نحن نتجدّد كالأشجار يا ليلى، وتصنع حمائم الأيام أعشاشها فوق أغصاننا فتثقلها، وتُسقطها.

أرادت ليلى أن تحكي لأبيها عن تجاهل مراد لها منذ زواجهما، عن إهماله لنوح،

عن الحبل المهترئ الذي يربطهما ويوشك على التمزّق، عن الروايات التي حُرمت من قراءتها، عن الكاسيت الذي يستمع لبكائها كل يوم، ولا يعرف أنه على وشك التعرّض لحادث سيفقده بابه للأبد.

وقفت أمينة - ابنة عم مراد - أمام باب الشقة وفي يدها طبق تتصاعد منه الأبخرة. أدخلتها ليلى ثم حملت منها الطبق ودخلت به للمطبخ. جاء مراد الصغير يسير مترنحًا، ألقى بنفسه في حضن أمينة فرفعته عاليًا ثم أخذت ثلاعبه. جاءت ليلى تحمل زجاجة كوكاكولا نُزع غطاءها للتو، وضعتها أمام أمينة التي قالت مبتسمةً:

- مراد يُشبه جدّي يونس تمامًا.

كانت أمينة - ابنة الأربعين عامًا - كثيرة الكلام، ولذلك، طلب مراد من ليلى أن تُبقي علاقتهما سطحيةً قدر المستطاع.

- لا أعرف شكل الجد يونس، لا تُوجَد له صورة واحدة هنا في البيت.

- كان رجلًا مجنونًا ...

ضعقت ليلى من الرد، أرادت أن تُوقف أمينة عن الكلام ولكنها انفجرت كماسورة اصطدم بها قطار.

- كان يفعل أشياء غريبة؛ يضرب مراد بالشوط، يربط إسماعيل في الشجرة، يركض عاريًا في الأرض الزراعية، يسبّ أهل البلد، يُلقي بيوتهم بالحجارة، يختفي أسابيع لا نعرف عنه شيئًا، ويعود فجأة للظهور بملابس مختلفة؛ يستبدل الجلباب بقميص وبنطلون، يحمل كتبًا ودفاتر ويقول كلامًا عجيبًا؛ أنا أهمُّ كاتب، أنا أذكى مخلوق، أنا الرسول المُنتظَر ...

هزّت رأسها وهي تقول في تأثُر:

- أستغفر الله العظيم ...

ظنّت ليلى أنها ستسكت ولكنها نهضت في نشاط، وضعت مراد الصغير أرضًا، اتجهت للكاسيت المحاط بعشرات الشرائط ثم قالت وهي تتأمّله:

- المجنون ابنه غرق في الترعة وهو يحفر بيديه مقابر الميتين ويخرج ...

قطعت حديثها عندما رأت مراد - ابن عمها - واقفًا أمام الباب، انتفض ذراعها بقوة كأنها أصيبت بنوبة صرع، ارتطمت يدها في الكاسيت فسقط على وجهه محدثًا صوت ارتطام أيقظ نوح من نومه، راح الصغير يصرخ، تجمدت أمينة كالتمثال عدة ثوانٍ قبل أن تندفع خارج الشقة وتصعد السلالم برشاقةٍ لا تتماشى مع جسدها الممتلئ. لم يغضب مراد، لم يسأل، لم يعاتب، أشار للكاسيت المتكفئ على وجهه ثم قال ببرود:

- لا أريد أن أرى هذا الشيء هنا.

حملت ليلى الكاسيت بسرعة، كان قد فقد بابه، ولم يكن الوقت مناسبًا للاهتمام بما فقده. خرجت به إلى الشرفة، وضعته فوق المنضدة الصغيرة التي تتوسط مقعدين، لم تدرك وهي تضعه أنه سيمكث في مكانه هذا للأبد، وأنها ستقضي ما تبقى من عمرها في تأمُّل بابه المفقود.

نجحت ليلى في حماية ولديها من الفشل، وفشلت في حمايتهما من أفكار مراد الذي أثبتت الأيام أنه مهووس بالوصول، بالسلالم، بالصعود فوق رءوس الآخرين، بالنجاح الذي يستحقُّ أن نُضحي بأعمارنا من أجله، وبالتحكُّم في الناس كعرائس يُحركها بخيوطٍ شفافة.

كان مراد لاعب شطرنج بارعًا، دائرته الشخصية كانت عبارة عن رقعة شطرنج كبيرة، والناس الذين سمح لهم بدخولها كانوا مُجرد قطع مختلفة الأشكال والقدرات. وضع ابنه مراد فوق مُربع الملك، ولم ينظر لنوح كابنٍ له، كان يراه عسكريًا محدود الذكاء، مُحدَّد الاتجاهات، أحاديّ الخطوة، عسكريًا لم يكتسب جيناته فحُرم من الترقية وكُتب له أن يُوضع في قائمة البسطاء التي تضمُّ حلوانيًا يُعِد صينية بسبوسة كل صباح، وفتاةً ضحَّت بدراستها وأنوثتها من أجل أربعة جدران وكاسيت.

حقق مراد كافة الشروط المطلوبة للانضمام لحزب أبيه، حصل على إقامة دائمة في دائرة اهتماماته، وفشل نوح في اجتياز اختبارات تحديد القدرات، طرد من المعسكر قبل بدء التدريب، قبل فتح البوابة، قبل أن ينطق بكلمة، طُرد بمجرد أن

قطع حبله السّري وعرف أنه يُشبه المغضوب عليهم.

صار نوح صديق أمه المقرب، أعادها لزيارة السينما بعد سنواتٍ من الخصام، خصص صندوقًا كان يجمع فيه تذاكر الأفلام، صندوقًا رأته ليلى فتذكّرت، فابتسمت، وتساءلت؛ لماذا قطفتْ الوردة؟

أكلا الذُّرة المشوية من يدِ صباح التي انتقل أبوها لخالِقه وترك لها مشنةً، فحمًا، وكومَ لحم.

اشترى لها نوح وردةً فأهدته كاميرا حمراء تُقلِّب الصور بضغطةِ زر، وعرفت من نظراته لماريا أنه ما عاد صغيرًا.

كان مراد ينظر لأولاده كلعبةٍ تعطيك عدة محاولات قبل أن تُعلن خسارتك، فقدَ قطعةً مميزةً فعوّضها بقطعةٍ عادية ليَبقي المربع مشغولًا، وتبقى فرصه قائمةً. أمسك القطعة الجديدة باشمئزاز، مسحها بمنديله ليُزيل ما علق بها من غبار البسطاء، طلاها بلون طموحه الشخصي، وعلّمها كيف تتحرك فوق الرقعة، كيف تقفز فوق بقية القطع، كيف تسحقهم، تسبقهم، وتصِل قبلَهم لمُربع النجاح الذي لا يتّسع سوى لقطعةٍ واحدة تُصفق لها الأيادي، وترحل بقية القطع دون أن تحقق شيئًا أو تترك إرثًا.

لم تتوقّف ليلى عن الرقص فوق مسرح العرائس حتى غادر أبوها العرض، تحوّلت الخيوط المُثبتة في أيديها لأسلاك تتدلّى من شاشة تُصدر صوتًا منهكًا، شاشة وقف أمامها أطباء يتحدثون بكل لغاتِ العالَم عن انسداد مَنبع الكلمات وانتشار وباء الصمت، نظرت ليلى بجوارها فوجدت جميل يقف بجلبابه الفضفاض، يُفاصل مع بائع الأقراص لكي يشتري لعزة قُرصةً بالعجوة، تضحك عزة بانتشاء، ويُسدَل الستار.

-٤-

قُبعة الماضي السحرية

عزيزي الناشر،

تحية طيبة وبعد ...

لا أعرف إذا كنتَ تقرأ رسائلي أم لا، لا أعرف ما هو مصير تلك الصفحات التي أبقتني مُستيقظًا طيلة الأيام الفائتة، ولكني لأول مرة في حياتي لا أشعر بالقلق، لا أتعجل على الانتهاء من مشروعٍ لبدء آخر، لا أعُد الأوراق والأسطر والكلمات، لا أفكر في امتلاء الدُرج بأعمالٍ ضيعتُ فيها أعوامًا ثم دُفنت لأنها - كما قلتَ لي - لا تستحقُ النشر.

هذه أول مرة أجد نفسي بين السطور حُرًا.

لا يُوجد في الدنيا ما هو أغرب من العلاقات، زجاجة ماء تُملأ قطرةً تلوَ الأخرى ثم تُقلب وتُسكب مرةً واحدةً. تنتفخ بسرعةٍ فائقة كبالونٍ ضخم ثم يعبر فوقها قطار الزمن فيفرغ هواءها، يُفرقعها، يدهسها، يُحولها لقطعٍ صغيرة من مطاط يلتصق بالأحذية كعلكٍ فقد نكهته وفُرّغت عصارته فطُرد من الأفواه.

تتحول العلاقات لذكرياتٍ مُشوشة، لسلامٍ مُتردد، لصورٍ بهتت ألوانها وحُبست في ألبوماتٍ لا تنظر لها عين، لأشياءٍ فقدت لمعتها فملئت بها الأدراج والصناديق.

العلاقات كُتب تتكدّس بها مكتبة الماضي، واللقاءات الأخيرة أغلفة تترصّدك من بين الرفوف.

قُبعة الماضي سحرية، تخرج منها أشياء لم تكن هكذا عندما دخلتها. دُمية ابنتي أصبحت تتكلَم، ظلّت طيلة حياتها ساكنةً، ساكنةً، أسمعها تتحدّث الآن، تحكي لي قصصًا أسمعها لأول مرة عن طفلةٍ كانت تبكي وأبوها يركض بالقلَم خلف أبطاله.

صورتي في ألبوم الزفاف لم تعُد تبتسم، أتذكّر جيدًا أنني كنتُ أبتسم فيها بوضوحٍ ثم أنظر لها الآن فأجدني عابس الوجه، شارد الذهن، أنظر بعيدًا، وأتساءل: ماذا أفعل هنا.

أول رواية كتبتها لم يعد اسمي موجودا على غلافها، مُسح بطريقة ما، واستبدل بجملة: من تأليف شخص لا يعرف شيئا عن الحياة.

لا أحلم اليوم سوى بالقفز داخل تلك القبعة، بقطع تذكرة للقطار العائد للوراء، سأطلب من سائق القطار أن يتوقّف لنلتقط ابنتي من محطة المغادرة، سأعود معها لصالة شقتنا الضيقة، سأرتمي وسط ألعابها، وسأفتح حضني لها بدلًا من تلك الدُمية القبيحة. سأطلب من السائق التروّي لأزور أمي في بيتها، أراها مرة أخيرة وهي تُعد الغداء في المطبخ المختنق بالأبخرة وتُدندن مع صوت أم كلثوم المنبعث من الراديو. سأطيل النظر لعينيها، سأنهل من رحيق يدها، سألحس أطباقها لحسا، وسأرجوها أن تصحبني لبائع الكتب القديمة، تُخرج جنيهًا يتيمًا من محفظتها، وتأمرني أن أشتري كل ما أريد. سأعود لنفسي وأنا جالس خلف المكتب، مُنهمك في الكتابة، سألقي بدلوِ ماءٍ مُثلج فوق رأسي لعلّي أستيقظ، سأقسم لنفسي بأن الحياة لا تعرف شيئًا عن تلك المثالية، وسأحكي لها أنني في المستقبل سألتقي بطبيبٍ يبحث عن طبيب، بلاعب كرة يصنع الشطائر، بكاتبٍ لا يكتب، بأمٍ تسكن شرفتها مع كاسيت فقدَ بابه، وبأبٍ هاجر بعيدًا عن عائلته دون أن يُفارق مقعده.

قال لي نوح، بعدما خلع معطف الطبيب، إن الإنسان في حياته يبحث عن التقدير بلا جدوى، وعندما يموت تُمطر الأفواه بكلماتِ الحب بلا حساب، تصفى القلوب، تختفي العيوب، تُمحى الأخطاء، ولا يعود مصدرًا للإزعاج، للتهديد، أو للمنافسة.

الفصل الثالث

دفتر الهلاوس

١٠:٠٣ مساءً

تموت فتصبح محبوبًا،

تصمتُ فتصير مسموعًا،

تختفي فتكون مرئيًا،

تتوقف عن الركض فتنعم بالوصول.

ما الفائدة إذا صارت أحلامي حقيقةً وأنا لستُ موجودًا لأشاهدها تتحقق؟

-١-

قابلة للكسر

كان مراد راكبًا مزعجًا، لم يطع أوامر القائد بالنزول في محطاتٍ توقّف عندها القطار، قفز من الشبّاك بلا حقائب ولا وداع، تشبث بذيل طائرةٍ متجهة للسعودية حيث التحق بوظيفة محاسب في أحد البنوك، تحوّلت الزيارة لإقامة، والإقامة لهجرة، وعندما طلبت منه أمّه في إحدى زياراته الخاطفة أن يعيد التفكير في موضوع الزواج خرجت كلماته كرصاص مدفعٍ لا يرحم:

- لقد عشتُ عمري كلّه في بيتٍ لا تزوره السعادة أبدًا ... لماذا قد أكرّر هذه التجربة؟

لم تزدْ عليه، لم تتفاجأ بكلماته الثاقبة، كانت قد تحولت لتمثالٍ لا يؤثر ولا يتأثر. قديمًا، كانت تتناقش مع سائق القطار، تُحاول أن تُقنعه بتعديل المسار، تُهاجمه بخوف، تُدافع عن نفسها بتردُّد، وتنبش قبور روحه بحثًا عن كلمةٍ طيبة تُهوّن عليها مشقّة الرحلة. تآكلت بطاريتها مع دوران العقارب، ثُقبت زجاجة التعايش فسُكِبَ ماؤها يومًا بعدَ يوم، قطرةٌ تلوَ الأخرى، وعندما رأت أباها يُحمَل فوق الأكتاف نحوَ فمِ قبرٍ لا يشبع، قرّر جسدُها أن يصنع جلطةً يُرسلها لدماغها ليهدئ ثورته، جلطةٌ أغلقت بوابة الكلام العملاقة وتركت شبّاكًا صغيرًا مفتوحًا، شبّاكًا لا يكفي لخروج جملةٍ واحدة بلا تهتهة ولا تعثّر.

لم يبقَ في القطار سوى نوح الذي كان راكبًا مُطيعًا، تابعًا لسائقٍ لا يتوقّف عن إصدار الأحكام كقاضٍ متمرّس. حُكِم عليه بالدفن بين صفحات الكتب مُجددًا لكي يجمع شهاداتٍ يصنع بها لافتته، وتزيد بها قيمته. وعندما حان الموعد - حسب توقيت ساعة السائق - أوقف القطار عند محطة الزواج ثم التفت لنوحٍ وأشار له بالنزول.

تخرّجت فيروز بعد نوح بعامٍ واحد، وتخصّصت في طب الأطفال لتتبّع خطوات أبيها. كانت فائقة الجمال، مُهتمةً بمظهرها وأناقتها لدرجة الهوس، طيّبة القلب كجدة، مُجتهدة كعامل بناء، وعبقرية كعالِم فيزياء. كانت مشكلتها الوحيدة أنها لم تكن ماريا التي أغلق فور رحيلها قلبُ نوح والتصقت بأبوابه شبّاك العناكب.

بدأ نوح يجهز لزواجه بجسدٍ يتحرك بلا وعي، يختار أثاث الغُرف، يُراقب العمّال، يُسجل الطلبات في نفس الدفتر الذي يصف فيه هلاوسه، يُبدي رأيه في الديكور، الفستان، الذهب، قاعة الفرح، التورتة، الأغاني، والمصوّر الذي التقط لهما ألف صورةٍ خُفظت في ألبومٍ ضخم استقرّ على رفّ نيشٍ مُزدحم بأكوابٍ وأطباقٍ لم تتسخ ولم تُستخدم.

اختارت فيروز التي تُحب الحياة أن تكمل رحلتها مع إنسانٍ شبه ميت. حاولت أن تبثّ فيه الروح ثم أدركت أن القلوب التي مضى زمنٌ على توقّفها لا يمكن إنعاشها. رفض نوح فكرة الإنجاب ولكنها تمسكت بحقّها في الأمومة، كانت ترى - كما يرى الجميع - أن الطفل قادر على زرع الورود في قلب الصحراء.

طلب أبوه أن يُسمي الطفل مراد، أومأ نوح برأسه موافقًا كدميةٍ لا تمتلك رفاهية الاعتراض، رفضت فيروز أن تنصاع لرغبة حماها، لم تسمح له بتحويل طفلها لنسخةٍ مُقلدة ولو حتى بالاسم.

التصقت الأقنعة بوجه نوحٍ حتى صار نزعُها مُستحيلًا، أصبح مُدمنًا للادّعاء، عاجزًا عن التفرقة بين الحلم والحقيقة، غارقًا في بِركة ملوثة بالكوابيس والهلاوس. لم يعُد يأكل إلا ما يُبقيه حيًا، فقد نصف وزنه، أدمت القُرَح مَعِدته، وفتك الدخان بصدره. اندسّ بين الناس ليهرب من أفكاره، وأحسّ بينهم أنه يتيم ووحيد. كان كقطعةِ لحمٍ حُكِم عليها أن تُدفن بين صمتِ الزحام وزحام الصمت.

كان نوح يمشي في الشوارع وحده، يمشي بلا هُدَى، بلا هدف، بلا اتجاه، يمشي حتى تتعطّل أقدامه، ثم يركب سيارةَ أجرة تعيدُه لشارع الساعي، يضع قناع الابتسامة فوق وجهه، ويعود لمركبٍ وقودُه الوحيد هو الادّعاء.

- لماذا أنت حزين هكذا يا صديقي؟

التفت نوح بأعيُنٍ دامعة ليجد امرأةً أجنبية عجوزًا ترتدي فستانًا ورديًا يكشف عن جسدٍ نال حظّه من التفتّح ثم جاء دوره في الذبول. كان جالسًا في أحد البارات التابعة لفندقٍ فخم يحتضِن مؤتمرًا عن أحدث طرق علاج الاكتئاب. يشرب عصيرًا سيئ المذاق، ويحرق السيجارة تلوَ الأخرى بلا هوادة. وضعت يدَها على كتفه ثم قالت بالإنجليزية ببطءٍ وكأنها تستوعب الكلمات:

- كل ما يُثقل رأسك سيتلاشى إذا فهمت أن الحياة قابلة للكسر.

اتخذ قرارًا وهو عائد في تلك الليلة أن يتكلم، أن يصرخ، أن يبصق مشاعره في وجوه الجميع، وأن يضع الحجر الذي يجثو فوق صدره أرضًا لعلّه يتنفّس ولو لدقائق قليلة. عاد نوح من القاهرة، صعد الأب من العيادة، نزلت فيروز من شقتهم بالدور الثالث، وخرجت أمّه من المطبخ لترص أطباق العشاء فوق السفرة. قال الدكتور مراد الجالس على رأس المنضدة:

- هل كان المؤتمر مفيدًا يا نوح؟

- هل تعرف أنني إنسان مثلك؟

رفع الأب رأسه مذهولًا، تسارعت دقّات قلب نوح وارتعشت أصابع يديه، وضع يدًا فوق الأخرى أسفل المنضدة ثم قال:

- والله العظيم أنا إنسان مثلك ... أشعر ... أرغب ... أضعف ... أحلم ... أفكر ...

هزّ رأسه ثم أتبع:

- أعرف أن هذا الخبر مفاجئ لك ومحبط في الآن ذاته، وأنك تنظر لي كآلةٍ لا تتعطّل ولا تتأثر ... أعرف أنني بالنسبة لك مجرد وسيلة للحفاظ على ما صنعته من مجد، لتحقيق المزيد من الأهداف، لإطالة المسيرة ومدّ السيرة لأطول وقتٍ ممكن ... تتعامل معي وكأنني دمية تُحركها بخيوطٍ لا يراها سواك، تُعدل شكلها وتُحدد مسارها وتُلزمها بتقديم عروضٍ من كتابتك وإخراجك من أجل إرضاء الناس ...

صفّق نوح بيديه بطريقةٍ درامية ثم أتبع:

- ومن أجل تصفيقاتهم.

سكت ثواني ثم قال:

- كرّهتني في مراد أخي وكرّهته في عيشته ... كان يحلم بأن يكون طبيبًا ولأنه كان ذكيًا أدرك أنه سيدفن في عيادتك للأبد فترك نصف أسئلة الامتحان بلا إجابة ... حطم مستقبله بيديه لكي لا يترك لك المطرقة فتحطّم شخصيته ... وأنا دخلت كليةً لا أريدها لكي أرضيك ... كنتُ بالنسبة لك عجلة استبن لجأت إليها بعدما ثُقب

إطارك الأصلي ... تخلّيت عن الإنسانة الوحيدة التي كانت تعرف من أنا لأنك أمرتْ بذلك ... خلقت بداخلي شعورًا بالذنب لم يفارقني يومًا، الذنب لأنني خسرتُ في الشطرنج، لأنني كنتُ بطيئًا في الركض، لأنني لم أتحصّل على درجاتٍ عالية، لأنني تحدثتُ عندما أمرتني بالصمت، وسكتُّ عندما أشرتَ لي بالتحدُّث ... حتى صُورتي في المرآة تُشعرني بالذنب لأنني وُلِدتُ بملامح تُشبه أمي ولا تُشبهك ... ولكن هل تعرف؟

ابتسم نوح وهو يهزُّ رأسه بعنف.

- أنت عبقري يا أبي ... كبّلتني بعُقد لا حصر لها ... زرعت بداخلي بذرة الاكتئاب ... ثم جعلتني طبيبًا نفسيًا ... حقًا أنت عبقري ... جعلت ابنك مُكتئبًا يُريد الموت وطبيبًا يُعالِج المُكتئبين في آنٍ واحد.

صفّق نوح مُجددًا ثم قال:

- هل قلتُ لك إنني أزور طبيبًا نفسيًا منذ أعوام؟ ... وأنني آخذ علاجًا غير مُفيد للاكتئاب؟ ... آسف جدًا يا دكتور مراد، لم أشأ أن أرهق عقلك بمشاكل لا قيمة لها كالأمراض والأصوات والهلاوس التي قضت على حياة ابنك ... آسف ... دُميتك ... قضت على حياة دُميتك.

التفت لأمه ثم أشار إليها بسبابته وقال:

- وأنت ... لماذا تركتِنا نُعامَل هكذا؟ ... لماذا لم تَطلبي الطلاق منذ أول يومٍ انتُهِكت فيه كرامتُك؟

أومأ برأسه وهو يقول:

- أعرف ... ستقولين إنك تحملت من أجلنا ... وحافظتِ على زواجك حتى لا يتشرّد أولادك بين بيتين ... أليس كذلك؟

لم تُحرك ساكنًا فسألها نوح:

- بالله عليك ألَم نتشرّد ونحن في نفس البيت؟ ألم تفصِل بيننا أميال ونحن ننام تحت سقفٍ واحد؟

لم ينتظر منها ردًا ولكنه التفت لزوجته وقال:

- أما أنت يا فيروز فلا يُوجد هنا من هو أسوأ منك حظًا وأكثر منك معاناة ... أردتِ أن تعيشي حياةً سعيدةً فتزوجتِ من رجلٍ مكتئب، لا يختار شيئًا بنفسه، لا يرسم طريقًا لنفسه، ولا يُحبك ... هل تعرفين أنني أدخل السينما مرتين كل أسبوع وحدي؟ ... هل تعرفين أنني قضيتُ ثلاثة أيامٍ في غرفة السطح وأنت تظنينني في مؤتمرٍ بالقاهرة؟ ... هل تعرفين أنني أسمع أصواتًا تُوقظني كل ليلة من النوم وأرى هلاوس أكتبها في دفترٍ أخذتُه من ماريا، التي لم أحب سواها؟

التفت لكريم ابنه الجالس بجواره، وضع يده على كتفه ثم قال:

- إياك يا كريم أن تُكرر خطئي ... لا تجعل إنسانًا، مهما كان، يُرغمك على السير في طريق لا يُناسبك ... لا تفعل ذلك بحكم الحب، الطاعة، الأخلاق، بر الوالدين، ولا تُصدق من يقول لك إنه يعرف مصلحتك أكثر منك ... أنت الوحيد الذي يعرف أين تكمن سعادته وراحته ... وأنا سأفعل كل ما أستطيع فعله لكي أدعمك وأساندك لأنني أنا الذي جئتُ بك للدنيا ... جئتُ بك لتسعد لا لتشقى ...

استفاق نوح على صوت فيروز:

- نوح ... يا نوح ... عمو مراد يُحدثك.

رفع رأسه لأبيه الجالس على رأس المنضدة فوجده يُضيف السُكَّر في كوبٍ من الشاي الأخضر.

- ماذا بك سارحًا اليوم؟ ألم تنم جيدًا؟

نظر لكريم الذي كان مُنهمكًا في محاولةِ تقشير بيضة ثم التفت لأبيه وقال:

- لم أنم على الإطلاق ...

- ليتك كنتَ موجودًا في العيادة اليوم ... الشابُ الذي لا يقتنع أبدًا بأنه مُصاب بفصام جاء مع والدته وفعل أشياء رهيبة.

قال نوح مُتحسرًا:

- أنت تعرف يا دكتور مراد أن أكبر مشكلات المرضى النفسيين أنهم لا

يستطيعون المواجهة ... وأن الناس - مهما تعاطفوا معهم - لا يدركون حجم معاناتهم أبدًا.

تعاقبت الأعوام، لم يعد كريم صغيرًا، مع دوران العقارب كانت تتشكل أحلامه، شخصيته، عيوبه، صفاته الموروثة التي لاحظها الجميع، واختلافاته التي لم يرَها سوى نوح الذي أدرك أن الإنسان يُولد بشغفٍ لشيءٍ ما، شغف يقترب منه فيزهر، أو يبعد عنه فيذبل. أصبح كريم أقرب الناس لنوح، أقلع عن الحشيش لكي يُصبح له أبًا محترمًا، وانتظم في تناول مضادات الاكتئاب حتى تبتعد عنه تلك السحابة السوداء.

لم يعُد نوح وحيدًا، كان كريم يُرافقه في كل مكان، في سينما مدينتهم الصغيرة صار لهما مقعدان في منتصف القاعة، ينتهي الفيلم فيذهبان لصباح بائعة الذرة التي انتفخ بطنها من الاستسقاء فاكتفت بالتربع فوق الأرض ومشاهدة ابنتها سميرة وهي ترصُّ الأكواز فوق الجمر. يأكلان الذرة وهما يتحدثان عن الأفلام والأحلام، ويكملان حديثهما في سيارة نوح وهما في الطريق لنادر الذي سئِم من التنقُّل بين المطاعم والمدن فاقترض من نوح مبلغًا اشترى به سيارة متهالكة ركنها أمام نادي المدينة الصغير، أزال مقاعدها، طلاها بألوانٍ زاهية، وضع بداخلها موقدًا وثلاجة ليحوِّل السيارة لمطبخ يُعد فيه الشطائر والمشروبات. واشتهر مطعم نادر رغم بساطة ما يُقدمه فاصطفت السيارات بجواره، وتجمّع الشباب حوله يأكلون، يشربون، يدخنون، ويتحدثون عن كل جديدٍ في دوائرهم.

أغلق مطعم روما بسبب ارتفاع قيمة الإيجار وقلّة الزبائن الذين كانوا يفضلون البيتزا والشطائر الرخيصة السعر، المتوسطة الجودة، عن الطعام الفخم الذي يُرضي بطونهم ويؤلم جيوبهم. جاء الأستاذ مينا من إيطاليا بحقيبةٍ مليئة بالأحلام، وعاد إليها برأسٍ مُنتفخ بالهموم بعدما خسر ماله ودفن أمّه.

اقتحمت الأمراض جسد الدكتور مراد بعنف بعد سنواتٍ من الانتظار خلف الأبواب. اعتاد دُرج الكومودينو المجاور لسريره أن يحتضِن مُجلدًا طبيًا يتصفَّحه كل ليلة قبل النوم، وفجأة؛ وجد الدُرج نفسه عاجزًا عن الانغلاق من غَلَب الأدوية المتكدِّسة بداخله. تعطلت ماكينات كليتيه وساءت وظائفهما فصار التبوُّل حلمًا، تراكمت المياه في جسده فتورّمت قدماه، وانتظمت زياراته لوحدة الغسيل الكلوي

فهزل جسده، بهت جلده، وأحيطت عيناه بسوادٍ قاتم.

تم العثور على متبرع بعد أشهرٍ من البحث والتحاليل، وافق أن يبيع جزءًا من جسده بمبلغٍ نسف نصف رصيد عائلةٍ وانتشل عائلةً أخرى من الغرق تحت سطح الفقر. نجحت العملية، زُرعت الكلية، حقن الدكتور مراد بأدوية مثبطة للمناعة حتى لا تهجم خلايا الدفاع على الكلية الجديدة، وحجب عن أهله في غرفة معقمة لحمايته من العدوى. أصيب بفيروس قالوا إنه يُلقب بالمكبر لأحجام الخلايا، تدلّت من يديه الأسلاك والخراطيم، اعتادت أذناه طنينَ الأجهزة، وبعدما شُفي بمعجزة، عاد لبيته إنسانًا لا يُشبه صورته المعلقة فوق التلفاز الذي كساه الغبار.

في أيامٍ قليلة، تحوّل الدكتور مراد صاحب العقل الفولاذي الذي لا تتوقف ماكيناته عن الدوران لعجوزٍ خائر القوى، ضعفت ذاكرتُه حتى صار ينسى أسماء أولاده، سيطرت على يديه رعشة جعلته عاجزًا عن حمل كوبٍ من الماء، ساءت تصرُفاته، احتدّ أسلوبه، ازدادت كلماته جرأةً وبذاءةً فتحاشاه الناس وانكمش في سريره محاطًا بأكداسٍ من الأدوية وأشلاءِ مجدٍ فتك به الزمن.

تآكلت ثروة الدكتور مراد شيئًا فشيئًا، باع نوح سيارته اللانسر وسيارة أبيه القديمة، أخذ يتنقّل بين المستشفيات والمصحّات والعيادة التي قلّ زوارها لغياب صاحبها، وصار حلمه الأكبر هو أن تمضي الأيام بدون مفاجآت ولا أحداث.

- أبوك لم يأكل شيئًا منذ الصباح.

قالت أمّه كلماتها ثم عادت لمراقبة بوابة محطة القطار المزدحمة، طرق نوح باب غرفة أبيه ثم دخل بهدوء.

- من أنت؟

كان نوح قد تعوّد على ذاكرة أبيه المضطربة.

- أنا نوح ... ابنك يا دكتور مراد.

- أنا لستُ مراد ... الله يلعنه هذا الجبان الوسخ.

جلس نوح على حافة السرير أسفل قدمَي أبيه، التقط جهاز قياس ضغط الدم ثم قال وهو يفتح علبته:

- إذًا من أنت؟

نظر الأب للجهاز متوجسًا ثم استسلمت يداه وهو يقول:

- أنا إسماعيل ... إسماعيل يونس الساعي.

أحكم نوح إغلاق الكيس المطاطي حول ذراعه ثم أمسك بنافخة الهواء وبدأ يضغط عليها برفق. كان الزئبق يرتفع في أنبوبه عندما سأله نوح:

- ولماذا تشتم مراد أخيك؟

انتفضت عروق رقبته وهو يقول والرذاذ يتطاير من فمه:

- لأنه خسيس وجبان وقاتل ... لا تُدافع أبدًا عن هذا المجرم.

أخرج نوح قرصًا من علبة الدواء الخافض لضغط الدم، مدّ يده بالقُرص لأبيه وهو يسأله:

- وماذا فعل مراد ليُصبح مجرمًا؟

تناول القرص ثم دفعه لحلقِه بدون ماء قبل أن يعود بظهره ليستند للمخدة ويقول:

- قتل كلّ من أحبّهم ... وكل من أحبّوه ...

نظر أبوه للسقف ثم بدأ يتكلّم بصوتٍ خافت.

- رأى مراد أبوه يُضرَب حتى الموت ولم يُحرك ساكنًا. لم تكن هذه أول مرة تتلطّخ يداه بالدماء، كان يعرف أنني لم أغد أحتمل الأصوات، كان يراني أضرب رأسي في الحائط كلّ يوم، وعندما وقفتُ على حافة الترعة كان يُراقبني من خلف الشجرة، ظنّ أنني لم أرَه، ولكني رأيته، رأيته يستنِد لجِذعها، يضمّ ركبتيه لصدره، يحشر رأسه بينهما، ويُراقب...

التفت لنوح ثم أتبع:

- راقبني والمياه تقتحم صدري كما كان يُراقبني وأبوه يجلدني بسوطِه ... لم تكن أول مرة ... ولم تكن الأخيرة ...

نهض من السرير بصعوبة ثم استند إلى الحائط حتى وصل للشباك المطل على محطة القطار. نظر ليد زوجته الممتدة من الشرفة بسيجارةٍ تتدلى من بين أصابعها. قال بنفس النبرة الخافتة:

- قتل الإنسان الوحيد الذي أحبته ليلى ... قتله بأكثر الطرق جبنًا ... وتركها تتحلل يومًا بعد يوم حتى تعفنت روحها.

رأى الأب انعكاس صورته في زجاج الشباك فعاد منتفضًا للوراء ثم أشار بسبابته للزجاج وهو يقول:

- هذا الجبان قتل أولاده بيديه ...

ألقى بجسده على الأرض، استند بظهره للحائط، ضم ركبتيه لصدره ثم احتضنهما وأخذ يبكي كطفلٍ خائف. نزل نوح على ركبتيه وأخذ يُطبطب على ظهره وكتفه، كان يحاول مساعدته لكي ينهض عندما قال أبوه محدثًا نفسه:

- الجبان قتلهم كلهم ولم يقتل نفسه ...

أغمض الأب عينيه لدقيقة ثم فتحهما ومدّ يده للدُرج الممتلئ بالأدوية. دس يده بين أكوام العلب ثم أخرج ورقةً مهترئة أعطاها لنوح وقال:

- هذه أهمُ رسوماتي ... خُذها هديةً لك ... أنت ولد طيب ...

فتحها نوح برفق حتى لا تتمزق، كانت رسمةً بقلم رصاص لرجل عاري الجسد منكّس الرأس ومكبل بالأصفاد إلى الحائط. أعاد نوح طيّها ثم وضعها فوق الكومودينو. أمسك علبة الزبادي، أزال غلافها ثم بدأ يُطعم أباه الذي أكل وهو يبتسم في سعادة وكأنه لم ينهمك في البكاء قبل لحظات.

- تراودني كوابيس مُخيفة ... هل من الممكن أن تنام بجواري الليلة؟

أومأ نوح برأسه موافقًا، خلع ملابسه وارتدى جلبابًا، أطفأ المصباح، وتمدّد بجوار أبيه لأول مرةٍ منذ خروجه من رجم أمه.

على حافة اللسان

يبدأ الفيلم بمشهد لطفل محاط بألعابه، يقترب منه شخص لا يظهر وجهه، يجمع الألعاب كلها في كيس بلاستيكي كبير ثم يضع مكانها كتابًا ضخمًا، يعبس وجه الطفل وقبل أن يبدأ في البكاء، يضع الرجل على وجه الطفل نظارة رؤية سوداء، متهالكة، وكبيرة الحجم. يرفع الطفل يده ليلمس النظارة فيشير له الرجل بأن يمتنع عن لمسها ثم يشير للكتاب فيبدأ الطفل في تأمله في غير فهم.

تبتعد الكاميرا فتظهر مجموعة كبيرة من الأطفال المختلفي الأشكال، الأعمار والأنواع، أمام كل طفل منهم شيء مختلف؛ سيارة لعبة، كراسة رسم وألوان، بيانو، كرة سلة، دمية، ميكروفون. يدخل مجموعة أشخاص لا يظهرون وجوههم، يُغطّون زاوية الرؤية فلا ترى سوى ظهورهم وأيديهم المنهمكة في أفعالٍ غير واضحة. بعد ثوانٍ ينصرفون فيظهر الأطفال وقد تبدلت أشياؤهم بأشياء أخرى، مسطرة، كيس دقيق، دفتر قديم، مفتاح سيارة، سماعة طبية. يدخل هؤلاء الأشخاص مجددًا، يختفي الأطفال خلف أجسادهم ثم ينصرفون فيعود الأطفال للظهور وقد وُضعت فوق أعينهم نظارات طبية مختلفة الأحجام والألوان، يشار لهم بأصابع عديدة على أشيائهم الجديدة فيبدأ كل طفل منهم في التعرف على الموجود أمامه.

تبتعد الكاميرا تدريجيًا فتظهر ألعابهم وحاجاتهم وهي تُجر بأحبالٍ مبتعدةً عنهم، تبتعد الصورة أكثر ثم تُصبح ضبابيةً قبل أن تسوَدّ الشاشة تمامًا.

- هل الصوت أكثر وضوحًا الآن؟

أومأت الطبيبة ثم قالت:

- نعم ... واضح ... الإنترنت عندك بطيء جدًا.

- الحمد لله أنه موجود.

ضحكت نادين ثم سألت ماريا:

- ما هو شعورك بعد يومين من الحياة في بيتك القديم؟

أسندت ماريا هاتفها إلى الحائط ثم قالت وهي تُخرج جهاز التدخين الإليكتروني من حقيبتها:

- لا أعرف ... أشعر أحيانًا بالراحة النفسية وأحيانًا أشعر أن البيت خالٍ من الهواء ... وأنني لو مكثتُ يومًا آخر سأختنق ... بعيدًا عما أحسُ به، كنتِ صائبةً فيما قلته يا دكتورة ... عُقَدي النفسية تُوجد هنا... في هذا البيت ... والهروب منها لم يعُد يُجدي نفعًا.

ابتسمت الطبيبة وقالت:

- هل هذه غُرفتك؟

أومأت ماريا بالموافقة ثم مدّت يدها والتقطت الهاتف، أخذت تدور به ببطء لتعرض للطبيبة غرفة طفولتها ثم توقفت أمام كومودينو تراصّت فوقه مجموعة من الكتب يعلوها صندوق مُغلق، أسندت الهاتف للحائط مجددًا، فتحت الصندوق برفقٍ ثم اخرجت منه كاميرا كانون وقلمًا معضوض الغطاء. رفعت القلم أمام الهاتف ليظهر لنادين ثم قالت:

- فقدتُ هذا القلم خمسة عشر عامًا ثم عاد لي مُجددًا ...

ضغطت ماريا مِفتاحًا في جانب الكاميرا ثم أخذت تُداعب الأزرار قبل أن تتوقف وتبتسم. أدارت شاشة الكاميرا نحو الهاتف لكي تراها الطبيبة، كانت تظهر صورتها الأخيرة في مطعم روما.

- هذه آخِر صورة التقطها لي نوح ... لم أتحدّث معه بعد هذا اليوم.

سكتت قليلًا ثم قالت:

- كنتُ بخيلةً في الكلام يا نادين ... لا أعرف لماذا ... كنتُ أدّخِر كل شيء لوقتٍ لاحق ... لوقتٍ توقفت الساعة قبل أن يأتي ... هناك مواقف لو عشناها مُجددًا ستتصرّف بطرقٍ مختلفة ...

تردّدت نادين قبل أن تسأل:

- ماذا كنتِ ستقولين له لو عاد بك الزمن لهذا اليوم؟

- كنتُ سأخبره أنني بدونه كطفلٍ تاه من أبيه في زحام صلاة العيد ... كنتُ سأخبره أن معاجم اللغة لا تضم كلماتٍ تكفي لوصف مشاعري تجاهه ... كنتُ سأرجوه ألا يُحمّل نفسه فوق طاقتها ... أن يتوقف عن إسعاد الناس والبحث عن رضاهم على حساب نفسه ... أن يهوّن على نفسه ... كنتُ سأطلب منه أن يقطع لنا تذكرتين لقطارٍ متجهٍ لأي مكانٍ بعيد ... سأرحل معه بدون حقائب ... أو تذكرتين لسينما تعرض أي فيلم ... سأتحدث معه همسًا ولن أنظر للشاشة ... أو يشتري لي كوز ذرة من صباح ... سآكله حبةً حبةً ولن أتعجّل... كنتُ سأقسم له أنني بدونه لا شيء ... لا شيء على الإطلاق ... شخص ميتٌ يسير على قدمين ... ويبتسم أحيانًا ...

مسحت عينيها بكفّ يدها ثم قالت:

- أكثر ما يؤلم في الدنيا هي الكلمات التي وقفتْ على حافة اللسان ثم انتهت صلاحيتها وفات موعد خروجها.

سمعت ماريا صوت مفتاح أبيها يُولَج في الباب فاستأذنت نادين وأنهت الاتصال. دخل أبوها يستند إلى عكازه وبجواره مايا التي قالت في حماس:

- جدُو علّمني الشطرنج واشترى لي عنبًا مُثلجًا.

انحنى الجد على كتِف مايا وقال هامسًا:

- عنّاب يا مايا وليس عنبًا.

عدّلت مايا كلماتها بنفس الحماس:

- عنّاب مثلج.

جلست ماريا على رُكبتيها ثم قبّلت خدّ مايا وقالت:

- وهل أعجبك؟

- جدًا جدًا ... ممكن نعمله في بيتنا؟

نظرت ماريا لأبيها الذي غلّفته الأعوام بطبقاتٍ من التجاعيد ثم قالت مُبتسمةً:

- هذا بيتنا يا مايا ... هذا بيتنا.

التفتت ماريا نحو غُرفة أمها المفتوحة، نظرت لسريرها الفارغ ثم أشاحت بوجهها وقالت:

- أريد أن أتمشى قليلًا.

التفتت لمايا ثم قالت:

- لا تُرهقي جدّكِ بطلباتك التي لا تنتهي ... اتفقنا؟

هزّت مايا رأسها ثم ركضت نحو الشرفة المفتوحة.

- ماذا أعِدُّ لكما على الغداء يا ماريا؟

اقتربت منه وقبّلت خدّه لأول مرةٍ منذ كانت تجلس فوق قدميه وهو يلعب الشطرنج في بورصة الساعي. فاضت عيناه بالدموع، ارتمت في حضنه ثم راحت تشمُّ رائحته التي لم تكن تعرف حتى هذه اللحظة أنها في غاية الشوق والحاجة إليها. تركته واقفًا في منتصف الصالة مُبتسمًا وخرجت من الشقة وهي تشعر وكأنها طيرٍ عادت له أجنحته المختطفة.

وقفت ماريا أمام محل الجد جميل المغلق، تأملت الجراج المُغطى بالتراب، أحسّت بروحها تنفذ عبره للداخل، وجدت نفسها تقف أمام الجد جميل المنهمك في تقطيع البسبوسة بجلبابه الفضفاض وقلبه الأبيض، سمعت صوت أسمهان قادمًا من راديو قديم معلّق فوق مسمار صدئ، وقفت تتأمل لوحة كُتب عليها «هو عليّ هيّن» بخطٍّ التصقت حروفه بذاكرتها بغراء الحُب، كُتبت بطلاء حائط فوق لوح خشبٍ سقط من سريرٍ مُتهالك، لوحة بقيت محفورةً في ذهنها لأعوام، لوحة علّمتها أن الذكريات هي من تُعطي للأشياء قيمتها وليس العكس.

مشت ماريا لدقائق، وربما لساعات. طافت شوارع المدينة بحثًا عن طفلةٍ أدركت مُتأخرًا أنها فُقدت هنا، في شارع الساعي، بين المقهى ومحطة القطار، عند السوق القديم، بين أطفالٍ كانت أقصى حدود عالَمهم طرفي الشارع الضيق، وأمام شجرة توت شهدت على ميلاد الحلم، وضياعه.

وقفت أمام سينما المدينة الصغيرة، قطعت تذكرةً لفيلم لا تعرف اسمه، جلست في منتصف القاعة كما اعتادت، أظلمت القاعة وبدأت الشاشة تحكي قصتها.

تلفتت ماريا حولها، رأت شابًا وفتاة يتحدثان همسًا، رجلًا عجوزًا يصارع النعاس، مجموعة أطفالٍ ينظرون للشاشة بانبهار، وامرأةً في غاية الأناقة تُحدث نفسها بصوتٍ عالٍ.

يظنها الناس مقاعد وهي مراكب من يجلس فوقها يغرق في خيالاته، شاشة سحرية تعرض لكلّ مشاهد فيلمًا يراه بطريقةٍ مختلفة عن فيلم الجالس بجواره، سفينة فضائية تحمل ركابها لكواكب لا تخضع لقواعد الأرض وأحكامها، عوالم موازية فيها تتحقّق الأحلام، يحضر الماضي بإرادته، ويُصبح كل شيءٍ ممكنًا.

رأته قادمًا من بعيد، عرفته رغم الظلام الدامس، يركض بأقدامٍ مرتعشة، يختلط خوفه بسعادته، يسكب جبينه عرقًا، ويُغطي قميصه طين شجرته المفضلة، جلس فوق المقعد المجاور لها، مدّ لها يده فتساقطت قطرات من التوت فوق فستانها الأبيض لترسم بقعة على شكل دائرة أخذ قُطرها يتّسع حتى أحالت الفستان للبنفسجي، ضحكت له فضحك، أمسك يدها، نظرت للشاشة فوجدت كلمة النهاية تُكتب بخطٍّ عملاق، أضيئت القاعة، التفتت لنوح فوجدت مقعده فارغًا، وعاد فستانها أبيض كفريع في رُقعة شطرنج لم يسمح لها بالوقوف فوقه.

حتى يصل القطار

تحولت حياة ليلى لشاشة سينما تعرض فيلما مختلفًا عن ذلك الذي قطعت تذكرته، فيلمًا لا يُفهم، لا يُمتع، ولا يمكن مغادرة القاعة قبل نهايته.

وصل قطار جميل في موعده، غطى التراب الجرامافون فصمتت أسمهان، هرب مراد من زقعة الشطرنج الخاصة بأبيه بعدما أنهكته حياة القِطع، استسلم نوح لخطّاف السنارة فتركه يحمله من بحرٍ لبركةٍ بلا مقاومة، أحرقت ليلى آلاف السجائر ونفثت دُخانها في وجه لافتةٍ معلقة في شرفة العيادة، لافتة من أجل أن تمتلئ، أفرغت جسدَها من ماء الحياة.

أُصيب نوح بداء الصمت دون أن تُمزق عقله صدمة أو تسدّ شرايينه جلطة. كان يخرُج للشرفة كل يومٍ فيجلس فوق المقعد المقابل لأمه، يُشعل سيجارة ويمتصّ دخانها ببطءٍ وهو يُراقب بوابة محطة القطار، يلقي عقب السيجارة بعيدًا ويُتابعه حتى يسقط ثم يُقبّل رأسها وينصرف. حكى لها عن المخاوف مثلما كان يحكي عن المواقف، وصف لها الهلاوس مثلما كان يصف الأحلام، أصبح مشهد محطة القطار هو فيلم السينما الوحيد الذي يُشاهدانه معًا، وتحوّلت أكواز الذرة التي اعتادا أن يأكلاها من يدِ صباح لسجائر تُحقن في أوردتهم كمهدئات لا تؤدي دورها.

- هل شعرتِ من قبل أنّ حياتك آلت إلى طريقٍ لم تختاريه؟

التفت إلى ليلى ثم قال:

- وكأنك تعيشين حياة شخصٍ آخر؟

ضحك، قطّب حاجبيه، ضحك مُجددًا، وضع سيجارةً في فمه ثم قال:

- تم استبدالك مثلًا وأنت نائمة بواحدةٍ غيرك، أخذت هي أحلامك، مضت في طريقك، واستيقظتِ لتجدي نفسك هنا.

أشار للمنضدة ثم قال:

- في هذه الشرفة.

بذلت ليلى مجهودًا كبيرًا لتنطق بالجملة الوحيدة التي قالتها منذ استيقاظها في هذا اليوم:

- السكوت ... وقود ... التمادي.

نظر لها نوح متفاجئًا وقد كان معتادًا على الحديث معها بلا رد. أشعل سيجارته ثم قال والدخان يخرج مع الكلمات:

- ربما هذا مجرد حلم، ربما قد غفوتُ في السينما كما أفعل دائمًا، وسأستيقظ بعد قليلٍ لأجد نفسي بجوار من أحب، نأكل الفوشار من علبةٍ واحدة، نسأل بعضنا همسًا عن تفاصيلَ فاتتنا في الفيلم، ونُخطط لما سنفعلُه بعد الخروج من القاعة.

عندما التقت ليلى بفيروز أول مرة، كانت تبدو وكأنها تقف أمام مرآةٍ تعرض صورتها قبل ثلاثين عامًا. فتاة جميلة، مفعمة بالطاقة، تضحك عيناها بلا خجل، وتتحدث عن طموحاتها البعيدة كأنها على بعد خطوةٍ من تحقيقها. رأتها تخفت يومًا بعد يوم، تُظلم، تذبل، تجف، تنكمش، تضمحل، ثم تتلاشى وتنضمُ لطابور الباحثين عن طريقةٍ للبقاء على قيد الحياة. أحبتها كابنةٍ لم تُنجبها، كانت تجلس فوق مقعد نوح وتحكي عن كلِّ شيء بلا توقف ولا تردد، عن جديد عائلتها، صعوبة المذاكرة، بكاء مرضاها الصغار، برود مُشرف رسالة الماجستير، فستان تفكّر في شرائه، قَصة شعر تُعجبها، ودائمًا ما ترسو سفينة الكلمات على شاطئ نوح، تصف معاناتها معه فتتأكد ليلى أن التاريخ يُعيد نفسه دائمًا، وأن الأيام لا تتوقف أبدًا عن قطف المزيد من الورود.

- لم أعد أعرف كيف أتعامل مع نوح، أحاول أن أتكلّم معه فيهز رأسه ويصطنع الاهتمام، أجده سارحًا طوال الوقت، أسأله عما يُفكر فيه فيبتسم ويقول لا شيء، يرجع من العيادة مُثقلًا بالهموم شاحِب الوجه كأنه قد أصيب بكافة أمراض الدُنيا، يُريدني أن أترك كريم يفعل كل شيءٍ يُريده وإلا لن أكون أمًا عادلة، أقول له إن كريم ما زال طفلًا ويجب أن نُوجهه ونُعلمه فيثور ويصيح ويُغلق باب الغرفة عليه ثم يخرج بعد ساعاتٍ مبتسمًا وكأن شيئًا لم يكن. أحِبُ نوح يا طنط ليلى، أعرف أنه طيب القلب، وأنه يستحقُّ أن يرتاح ويسعد، ولكني لا أعرف ماذا أفعل حتى أسعده وأرضيه.

تفتح ليلى ذراعيها فتلقي فيروز بنفسها وتبكي، تصنع بركةً من الدموع فوق عباءة ليلى، تُطبطب عليها، تمسح على شعرها، تريد أن تُخبرها أن ما رآه نوح في حياته ليس قليلًا، ولا هينًا، أنه عاش كفأر تجارب في مختبر أبيه، خَفَن بمعاملة جفّفت مشاعره، وحُرم من حقّه في الحلم. تريد أن تُخبرها أن تقاطع دائرتيهما حدث في وقتٍ خاطئ كالتقاء شمس الظهيرة مع قمرٍ نُزع منه الضوء. تختار ليلى الصمت كعادتها، تُشاهد فيروز وهي تحفر في منتصف الصحراء بحثًا عن نهرٍ مدفون، ونوح يبحث عن نفسه في دُرجٍ به دفتر متهالك، قلم معضوض الغطاء، وكاميرا فقدت بصرها منذ أعوام.

لم يعُد مراد قادرًا على إخفاء حالته، بدأ يتحدّث مع مرضاه بطرق غير لائقة، يتهجّم على خصوصياتهم، يؤكد لهم استحالة الشفاء، يقول إنه الطبيب الوحيد القادر على علاجهم، يُخطئ في تشخيص الأمراض، يصف أدوية خاطئة، يحدد جرعاتٍ لا تفيد أحيانًا وجرعات تؤدي لضررٍ جسيم في أحيان أخرى، يحكي المرضى معاناتهم فيسخر، يعترضون فيشتم، يرحلون عن العيادة فيُقسم أن الأجانب يغارون من نجاحه ويُخططون لتدميره بعدما أدركوا أنه أعظم دكتور نفسي في تاريخ البشرية.

خرج مراد إلى الشرفة، جلس فوق مقعد نوح، نظر للكاسيت ذي الباب المفقود في محاولة للتعرُّف عليه، أمسك علبة السجائر ثم قال:

- من الذي يُدخن في البيت؟

لم تلتفت ليلى، لم تتحرك، لم ترمش بعينيها، لم تتأثر.

- ابنك المتخلف يمنعني من النزول لعيادتي، العيادة التي بنيتُها وأوصلتُها لأعلى سلالم المجد. أنا، مراد الساعي، يتحكم فيّ طفل لا يُساوي قرشًا. الباشا يظن نفسه قد أصبح طبيبًا، يظن أنه يفهم في الطب النفسي، هذا الفاشل الذي لم يربح مباراة شطرنج واحدة في حياته يتصرّف وكأنه يمتلك عقلًا.

رمى علبة السجائر فوق المنضدة ثم أتبع:

- وأنت ... تجلسين هنا طوال اليوم ولا تفعلين شيئًا مُفيدًا في حياتك... هل أنت راضية عن نفسك؟ راضية عن تصرفاتك؟

نجحت في إقناع دموعها بالتراجع، بالاختباء، بالاختفاء.

- لو كنتُ تزوجتُ طبيبة لم تكن ستصيبني بالإحباط مثلك، كانت ستصبح شريكتي في النجاح، وستنجب لي ولدًا ذكيًا يُكمل المشوار ويُحقق المجد.

ضحك بقوة ثم أتبع:

- سأسميه مراد ... مراد الساعي ... سيصبح عظيم الشأن، سيشاور عليه الناس ويقولون هذا ابن البروفيسور الذي غيّر مسار الطب كله.

استند إلى السور لينهض من مكانه ثم وقف ينظر للشارع المزدحم بالسيارات وهو يقول مُحدثًا نفسه:

- لم يفعل شيئًا ... هذه مجرد رسمة ... لا تضربه ... مجرد رسمة ...

ظلّ يُكرر كلماته ثم انصرف بخطواتٍ مُترنِّحة.

رغم ما رأته، ما سمعته، وما عانته، أحسّت ليلى بالشفقة على مراد، أرادت أن تُطبطب عليه ولكن يديها لم تتحرك، احتشدت الكلمات فوق لسانها ولم تخرج، صمتت مثلما عوقبت بالصمت، تركته يُحدث نفسه مثلما جعل أولاده يجلدون ذواتهم في غرفة الصالون الكئيبة، حكمت الحياة أن يعود القلم لنقطة البداية لكي تكتمل الدائرة، ويُجرب الجلّاد ملمس سوطه.

منذ أصيبت ليلى بجلطة وهي تتجاهل رنّات الهواتف، لم تعد تردُ سوى على مُكالمات ابنها مراد من السعودية، يتحدّث باقتضابٍ كعادته، ويُنهي المكالمات قبل أن تبدأ. مدّت يدها لتلتقط علبة السجائر فلمحت هاتفها مُضيئًا، أمسكته لتلقي نظرةً، كان رقمًا غريبًا يتّصل بها، تجاهلته، عاود الاتصال ثلاث عشرة مرة، ضغطت مفتاح الردّ ثم وضعت الهاتف على أذنها، سمعت صوتًا جعل قلبها يتخطى نبضةً قبل أن تشعر به يركض وراء ضلوعها كغزالٍ يفرُّ من قطيع ذئاب.

- ازيك يا ليلى ...

آخر مرة سمعت هذا الصوت كانت ترتدي فستانًا أحمر اللون، تصل ضفيرة شعرها لأسفل ظهرها، تحمل بيدٍ روايةً رومانسية، وباليد الأخرى سماعة الهاتف

الأسود ذو البكرة والجرس. كانت عزّة تقف بجوارها، تلوك قطعة ملبن، وتضحك بلا سبب.

- أنا مصطفى ... فاكراني؟

- ازيك ...

كانت مؤمنةً بأنها مزقت تلك الصفحة منذ عقود، وأدركت في هذه اللحظة أن هناك ذكرياتٍ تُدفن ولا تُحرق، نظن أن قبورها قد أغلقت، وتأتي نسمة هواء عابرة فتنبشها، وتوقِظ كل شيء.

- مُمكن أقابلك؟

مدّت كفّ يدها أمام وجهها، تأملت عروقها البارزة، أصابعها المرتعشة، خاتم زواجها الذي أصبح تراثًا، كانت تنتظِر هذه المكالمة وهي بنت، عذراء، تقرأ، ترقص، تضحك، تحلُم، لم يتّصِل عندما خُطبت، تزوّجت، أنجبت، حبست، ذهست، ذبلت، ثم تذكّرها بعدما صارت جدة، صامتة، منطوية، لا يراها مخلوق، ولا تنتظر من الدنيا شيئًا.

- ممكن ...

تُوفّيت أمّه قبل عدة أشهر، رأت جسدها ملفوفًا في الكفن الأبيض، محمولًا على الأكتاف، انهارت في البكاء وهي تتذكّر هذه المرأة التي عرفت في حضنها طعم الأمومة. لم تجد ليلى حينئذٍ شخصًا لتعزيه، كان مصطفى معتادًا على الغياب في الأوقات التي تتطلّب حضوره، والوصول لرصيف المحطة بعد رحيل القطار.

- غدًا في مطعم روما ... هل تعرفينه؟

- نعم.

- السابعة مساءً ... يُناسبك؟

لم تنظر في ساعةٍ أو تهتم بوقتٍ منذ أعوام، لم تُفارق الشرفة لتلحق بمواعيد، لم يعُد يشغلها دوران عقارب ساعاتٍ تحلم بتوقّفها.

- نعم ...

وقفت أمام الدولاب تبحث عن فستانٍ يناسب جسدها، وقفت أمام المرآة تبحث عن جسدٍ يناسب فستانها، ووقفت مع نفسها تبحث عن روح تناسب ما ستفعله.

توقّفت سيارة الأجرة أمام المطعم مباشرةً، نزلت بصعوبة، ووقفت تتأمّل المكان الذي لم تزره منذ كان بقالًا، منذ كان نوح طفلًا يساعدها في حمل الأكياس، ويحكي لها عن أحلامه.

قرأت لافتة «المحل للإيجار» فوق الباب الزجاجي وهي تدفعه، وقفت وراءه تتأمّل تفاصيل المكان، المناضد الخاوية، الديكور البسيط، النادل الغارق في الحديث مع رجلٍ يرتدي قميصًا واسعًا ويبدو غاضبًا من تعبيرات وجهه وحركة يديه. لم يكن في المطعم سوى زبون واحد، يجلس عند المنضدة المطلّة على الشارع، يُوليها ظهره، ويداعب هاتفه المحمول بكِلتا يديه.

التفت إليها فرأته، كان هو، ولم يكن. غاصت العينان، فقدت تلك اللمعة الساحرة، أُحيطت بخطوط العمر من كل اتجاه، تبخّر الشعر الكثيف، اختفى، تبدّل بصلعةٍ ملفوفة بنصف دائرة من شعرٍ تمسّك بأرض أجداده وأبى أن يرحل، امتلأ الوجه الناعم بذقنٍ ثقيلة ليست سوداء ولا بيضاء، وقف برشاقته المعهودة، يرتدي بذلةً كُحلية اللون، قميصًا بلون السماء إذا صفت، ويبتسم ببراءةٍ وكأنه سافر على متن قطار الأمس ووصل صباح هذا اليوم.

مدّ يده ليُصافحها، التقت الأصابع الحزينة، الكفوف المنهكة، والأوردة البارزة. رأت ساعته القديمة ملفوفةً على رسغه، بهت لون حزامها، وامتلأ زجاجها بخدوش رسمتها الأعوام بأظافرها. جلست، ابتسمت، سُئلت عن حالها، عن صحتها، عن دُنياها، عن أولادها، ردّت بكل الإجابات العادية، المحفوظة، المتكررة، التي تبدو كخيطٍ رفيع يُخفي وراءه جبالًا من الحقائق والمشاعر والآلام.

فتح قائمة الطعام ثم راح يُقلب في صفحاتها كتلميذٍ يبحث عن مهرب من أسئلة مدرّسه. لم تكن لديها أي نوايا لسؤاله، لم تكن لديها أسئلة، كان الانتظار قد أفرغ كراستها من علامات الاستفهام والتعجّب.

- بصراحة أنا لا أحب البيتزا، أشعر أنها خليط من أشياء لا يناسب بعضها بعضًا.

قال كلماته ضاحكًا.

- أليست الحياة هكذا؟

نكّس رأسه وعاد يتصفح قائمة الطعام مُجددًا. جاء النادل عابس الوجه، ناعس العينين، فتح دفتره، لصق ابتسامةً صفراء فوق فمه ثم قال:

- هل حضراتكما جاهزان للطلب؟

أوشك أن ينطق ولكن ليلى سبقته:

- سآخُذ قهوة.

أغلق قائمة الطعام ثم قال مبتسمًا:

- وأنا مثلها، فنجانين قهوة سكر زيادة.

رفعت ليلى يدَها ثم قالت:

- سادة ... قهوة سادة.

- عذرًا، ليس لدينا قهوة تركي.

قالها النادل مُصطنعًا التأثر فردّت ليلى وهي تُعيد قائمة الطعام له:

- أي قهوة ... سادة.

كانت ليلى مصدومةً بالكلام الذي يخرج بسهولة من فمها. لم تجد تفسيرًا لما يحدث، لم تُصدق الأطباء الذين قالوا إن سكوتها نفسيٌ أكثر منه عضوي، وأحسّت بالكُرهِ عندما فكّرت أنه مثلما أخذ روحها عندما رحل، أعاد صوتها عندما عاد.

- تغيّرت مدينتنا كثيرًا.

قالها وهو ينظر عبر الزجاج الشفّاف، ردّت ليلى في سخرية:

- ربما أحزنها غيابُك.

ابتسم وهو يهزُ رأسه ببطء، جاء النادل الذي وضع قهوتهما فوق المنضدة ورحل، أخرجت ليلى علبة سجائرها من الحقيبة، أشعلت سيجارةً فجاء النادل مُجددًا ليضع منفضةً زجاجية أمامها، سحبت نفسًا بغمق جُرجها الغائر ثم سألته:

- لماذا رحلت؟

بهت وجهه، تلاشت ابتسامته، وارتجفت أصابعه، وكأنه لم يتوقّع أن يسمع هذا السؤال، وكأنه كان ينتظر أن يعود ليجدها تتحدّث عن ضفائر الشعر وروايات محفوظ وموسيقى ليد زبلين، قبل أن يستفيق من صدمة السؤال أسقطت الآخر فوق رأسه:

- لماذا اتصلتَ بي؟ ... هل تذكّرتني فجأة؟

مدّ يده فأمسك علبة سجائرها، أخرج سيجارةً بيدٍ مرتعشة، وضعها في فمه وأشعلها ثم راح يمتصّ الدخان كمن حُرم منه لأعوام.

- هل تعرف ما حدَث لي منذ رحيلك؟

أومأ برأسه وهو يقول:

- أعرف ... أعرف كل شيء ...

لم تسأله كيف يعرف، ماذا يعرف، وماذا فعل بمعرفته. سكتت، وسكت، وامتلأت المسافة الفاصلة بينهما بدخانٍ يُشبه علاقتهما، ظهرت، تكثفت، وتلاشت وكأنها لم توجَد.

- لو حكيتُ لك ما لا تعرفينه ستفهمين لماذا رحلت ... وربما حينئذٍ ستُسامحينني ...

أدركت ليلى أنه عاد بعد كل تلك السنوات لنفس السبب الذي يعود من أجله الجميع، للبحث عن الخلاص، عن الغفران، عن طريقة للتحرّر من الذنب، عن كلمةٍ سحرية تمحو الآثام وتُمزق صفحات الأخطاء من سجلّات الماضي المهترئة. أحسّت بتيه طفلٍ يحمل قلقًا، يجلس أمام ورقة بيضاء، يُطلَب منه أن يكتب وهو لا يعرف شكلًا للحروف، أحسّت بالحنين للصمت، بتقدير لتلك الجلطة التي سدّت ممرات الكلام، بالرغبة في الرحيل، الاختفاء، الاختباء في قبر لا يزوره إنسان ولا يدخله ضوء، نظرت عبر الزجاج لشجرة التوت التي شهدت أحداثًا تفوق قُدرة أغصانها على التحمّل، وكُتِبت على أوراقها الخضراء قصص أراد أبطالها أن تخلد ثم جاء الخريف فاصفرت، وتساقطت.

لم تعُد ليلى تمتلك رصيدًا كافيًا للتحدث، للنوم، للاهتمام، للتعاطف، للرجوع خلفًا أو المضي قدمًا. لم تفهم لماذا يجرفنا التيار نحو الصخور، لماذا يُحطمنا مَن نُسلّمهم قلوبنا، لماذا تُقطف الورود، لماذا نبحث دائمًا في الصناديق الخاطئة، لماذا تلدغ العقارب الساعات، لماذا تزدحم صالة بيتهم بالناس، لماذا ترتدي فيروز الأسود، لماذا تجلس ماريا فوق سرير نوح، لماذا يبكي كريم، لماذا توزع القهوة، لماذا أُغلق المقهى، لماذا تراصّت الكراسي الخيزران في الشارع، لماذا لا تتوقّف السيارات عن الحركة، لماذا لم يأتِ نوح ليطمئن عليها مثلما كان يدخل غرفتها على أطراف أصابعه ليتأكد أنها توقّفت عن البكاء، لماذا يقف عند بوابة المحطة، لماذا يبتسم هكذا، لماذا يُشاور بيديه، لماذا فقد الكاسيت بابه، ولماذا لم يصل القطار بعد.

-٤-

الاقتراب من اللوحة

عزيزي الناشر،

تحية طيبة وبعد...

يومًا ما، رسم لي شابٌ خريطةً تبدأ من صِفر أقف فوقه وتصل بي لنجاحٍ أحلم به. أكَّد لي أن البقاء في تلك المدينة الصغيرة لا يتناسب مع الطموحات الكبيرة التي تسكن بين ضلوعي. أثبت لي بالأدلة أن الإنسانة الوحيدة التي أحببتُها تُحب رجلًا آخر، تُرسِل له جوابات مُعطرة برائحتها، مليئة بأشعارها، ومختومةً بوعودٍ وقبلات. صدَّقته، شكرته، طلبت منه النصيحة فأشار للقطار المتجه للقاهرة وقال: هناك تجد حُلمك ومجدك وذاتك.

لم يُفارق مراد الساعي مخيلتي لدقيقة، لم أكتب روايةً واحدةً دون أن أعطيه دورًا يناسب ما أحمله له من كراهية؛ فقأت عينيه، أشعلت النار في جسده، دفنته حيًا، سمَّمته، دهسته، مزَّقته، طعنته، شنقته، كنتُ تسأل عن سبب وجود بطلٍ في رواياتي لا يفعل شيئًا سوى أنه يُسحق، صدِّقني؛ لم يُسحق أحد سواي، عوقبتُ بالرجم بجمر الندم، ولم أنل من العقاب ما أستحق.

أتذكَّر دود القزّ الذي كنَّا نضعه في كراتين نملؤها بأوراق الخس. كنت أجلس أمام الكرتونة، أتأمَّل الشرنقة، أنتظر خروج الدودة المُختبئة بالداخل، يغلبني النوم، وأستيقظ صباحًا لأجدها قد تحوَّلت لفراشة. لا أستطيع أن أصدق بأن أربعين عامًا قد مرَّت كما تؤكد الساعات، التواريخ، ونتائج الحائط. لم تكن سوى ليلةٍ واحدةٍ غلبتني فيها النُّعاس ففاتني مُعظم الفيلم.

عدتُ بعد أربعين عامًا أبحث عما فقدتُه، كل ما أردتُه أن تعرف ليلى الحقيقة، أن تعرف أن زوجها خائن، مُخادع، مُختل، ومريض نفسي. رأيت عينيها مُمتلئتين بالألم حتى فوهتيهما، ولم يكن هناك مجالًا لسكْب المزيد. أردتُ أن أستبدل دور الشرير في روايتها بالمظلوم، واكتشفتُ وأنا أتأمَّل تجاعيد وجهها أن روايتينا قد أوشكتا على الانتهاء، ثم أدركتُ أنني لعبتُ كافة الأدوار المُمكنة؛ كنتُ الطفل الساذج في رواية مراد، الولد العاق في رواية أمي، الاختيار الخاطئ في رواية

زوجتي، الكاتب المتوسط في روايتك، الأب السيئ في رواية ابنتي، والرجل الجبان في روايتي الشخصية.

أنظر للناس من الأعلى فأجد دوائرهم تتحرك، تتداخل، تتقاطع، تتباعد، تنتفخ، تضيء، تبيضّ، تتّسع، تفرقع، تسود، تندفع، تضيق، تختلف، تلتحم فتصير دائرةً واحدةً، تفترق وكأنها لم تتقاطع يومًا، وتتوهم بأنها باقيةٌ ثم تزورها ممحاة القدر، نشاهدها تُحذف من صفحات الدنيا، ولا تنعظ لرؤيتها أقلامنا.

سقط نوح أمام بورصة الساعي، كُتب في شهادة وفاته أنه مات بسبب سكتةٍ قلبية، والحقيقة أنه ضُغط حتى الموت، سُحق أسفل عجلات قطار أبيه، والتحق بقائمة الشباب الذين فتك بهم الضغط النفسي فسُحبت منهم أوراق الإجابة قبل منتصف المدة.

كان نوح مُحقًّا، كل من حضر جنازته بكى لفراقه، فاضت قلوب الجالسين في عزائه حبًا، امتلأت الصفحات بقصصٍ تحكي أمجاده، قصص كتبها من لم يتذكّره قبل يوم، ولن يتذكّره بعد يوم.

عزيزي الناشر

لن أرسل لك مُجددًا عن نوح الساعي.

ليس لأن روايته قد اكتملت،

ولكن لأن دائرته قد أُغلقت.

دفتر الهلاوس

٣:١٨ صباحًا

نفس الحلم مجددًا ...

أخوض سباقًا في شارع الساعي، يصيح أبي من فوق الرصيف مؤكدًا أن الحياة لا تلتفت سوى لمن يسبق الجميع، أركض حتى يتمزّق الحذاء، يشتعل صدري غضبًا، يشيب شعري خوفًا، تدور عقارب الساعة بسرعةٍ جنونية، تتكدس سحب الغبار فتصيب أعيني بالعمى، ينقشع الضباب تدريجيًا، تعود الرؤية شيئًا فشيئًا، أجد نفسي وحيدًا؛ لا منافسين، لا مشاهدين، ولا سباق يستدعي كلّ هذا الركض.